غِييرمو أرّياغا

رواية

مكتبة
1607

رائحة حلوة للموت

ترجمة : محمد الفولي

أثر

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

رائحة حُلوة للموت

رائحة حُلوة للموت / رواية
غِييرمو أرّياغا
ترجمة: محمد الفولي
الطبعة الأولى 1443 / 2022
ردمك: 978-603-91816-6-8
رقم الإيداع: 8193 / 1443

Guillermo Arriaga ©1994

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966549966668
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

23 11 23 مكتبة
t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

رائحة حُلوة للموت

رواية

غِييرمو أرّياغا

مكتبة 1607

ترجمة

محمد الفولي

إلى ماني، بالطبع..

الفصل الأول: أديلا

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

سمع رامون كاستانيوس صراخًا حادًا يأتي من بعيد، وهو ينفض التراب من فوق نضد البيع. أرهف سمعه أكثر، لكن لم يصل إلى أذنيه شيء سوى همهمة الصباح. فكّر في أنها ربما نقنقة إحدى دجاجات التشاكالاكا التي تتجوّل في الجبل، لهذا استمَرَّ في أداء مهمته. أمسك رفًا وشرع ينظفه. تفجر الصراخ مجددًا. هذه المرة بصورة أقرب وأوضح، وتلاه صراخ ثانٍ وثالث. ترك رامون الرفَّ جانباً، ووثب من فوق المشرب. توجه نحو الباب ليتحقق مما يحدث. إنه الصباح الباكر ليوم الأحد. لم يجد أحدًا. مع ذلك، كلما مَرّ الوقت، ازداد جنون واستمرارية الصرخات. سار إلى منتصف الشارع، فرأى ثلاثة أطفال يركضون من بعيد وهم يزعقون:

- ميتة.. هناك ميتة!

تقدّم رامون نحوهم. أمسك واحدًا منهم، قبل أن يختفي الاثنان الباقيان بين شوارع القرية. سأله:

- ما الذي حدث؟

جأر الطفل:

- قتلوها.. لقد قتلوها!

- مَن؟ وأين؟

انطلق الفتى الصغير راكضًا في نفس الاتجاه الذي جاء منه، من دون أن ينطق ولو بكلمة واحدة، فمضى رامون خلفه. رَكَضا على امتداد السبيل المفضي إلى النهر، حتى وصلا إلى حقل لحبوب السورغم.

صاح الفتى منفعلًا وهو يشير بسبابته إلى أحد جوانب الحقل:

- هنا!

رقدت الجثة بين أخاديد الحرث. اقترب رامون منها ببُطء وقلبه يرتعد مع كل خطوة. إنها امرأة عارية. ينظر وجهها إلى السماء وجسدها ممدد فوق بركة من الدماء. ما إن وقعت عيناه عليها، حتى عجز عن إبعاد نظرته عنها. عُمر رامون ستة عشر عامًا. لطالما حلم بتأمّل أي امرأة عارية، إلا أنه لم يتخيل قط أن يتأملها هكذا. جال ببصره فوق بَشَرتها الناعمة الساكنة بنظرة تخطّت فيها الدهشة الشهوة. كان جسدًا شابًا. بدت المرأة بذراعيها المفرودتين نحو الوراء وإحدى ساقيها المثنية قليلًا، كأنها تطلب عناقًا أخيرًا. داهمه هذا المشهد. ابتلع ريقه وتنفس بعمق. استشعر أريجًا حلوًا لعطر زهري رخيص. وَدّ أن يُمسِك يد المرأة؛ أن يجعلها تنهض، وأن يطلب منها أن تُنهي كذبة موتها، لكنها ظلت عارية وبلا حراك. خلع رامون قميصه -قميص أيام الآحاد- وغطاها قدر استطاعته. لما اقترب منها، تمكن من التعرف عليها: إنها أديلا وقد طُعنت في ظهرها.

2

وصل حشدٌ من الفضوليين إلى الحقل بعد أن أرشدهم الطفلان الآخران. ظهروا على امتداد السبيل وسط جلبة كبيرة إلى درجة أنهم كادوا يتعثرون بالجثة. دفعهم عرض الموت إلى إطباق أفواههم فجأة وهم يطوقون المكان في

صمت. أمعن بعضهم في اختلاس النظر إلى القتيلة، فتبيَّن رامون أن بعضاً من عُري الجثة لا يزال ظاهرًا. هكذا، قطع بيديه بعض أعواد السورغم وغطَّى الأجزاء المكشوفة. راقبته البقية بتعجُّب، كدخلاء يقتحمون طقسًا خاصًا.

فتح رجلٌ سمينٌ شائب طريقه بينهم. إنه خوستينو تِييث، مفوض الأمن في لوما غراندي. توقف لحظة، دون أن يتجرأ على اجتياز الدائرة المحيطة برامون والقتيلة. كان يوَدّ أن يظل على الهامش؛ مجرد رجل آخر وسط الجمع. مع ذلك، وجب عليه أن يتدخل، لأنه ممثل للسلطة. بصق على الأرض وتقدم ثلاث خطوات كبيرة وتبادل مع رامون بضع كلمات لم يسمعها أحد. قرفص إلى جوار الجثة ورفع القميص كي يرى وجهها.

فحص المفوض الجثة برهة. غطى وجهها مجدداً حين انتهى ونهض بصعوبة. طقطق بلسانه، أخرج منديلًا من جيب بنطلونه ونظَّفَ العرق الذي انزلق فوق وجهه. بعدئذٍ أمر:

- اجلبوا عربة. علينا أن نأخذها إلى القرية.

لم يتحرك أي شخص. تفقّد خوستينو تِييث الوجوه المتنوعة التي ترقبه، لما رأى أن أحداً لم ينفذ أمره. توقف عند وجه باسكوال أورتيغا، وهو فتى نحيف أخرق متقوس القدمين:

- هيا يا باسكوال. امض واجلب عربة جدك.

نظر باسكوال أولًا إلى الجثة، ثم إلى المفوض، كأن أحدهم أيقظه من نومه فجأة، ثم استدار برأسه وانطلق راكضًا نحو لوما غراندي.

وقف خوستينو ورامون وجهًا لوجه من دون أن ينبسا ببنت شفة. سأل بعض الفضوليون همسًا:

- من القتيلة؟

لم يعرف أحدٌ حقًا من هي، ومع ذلك، أصدر صوت مجهول حكمه:

- إنها خليلة رامون كاستانيوس.

ارتفع طنين الهمهمات بضع ثوان وحين توقف، فرضَ صمتٌ كثيف نفسه على الأجواء. لم يكسر هذا الصمت سوى صرصرة حشرات الصرانيخ. بدأت الشمس تخبز الهواء بحرارتها. انبثق بخار ساخن ورطب من الأرض. لم تهب ولو نسمة واحدة، أو أي شيء قد ينعش هذا اللحم الهامد.

أكد خوستينو بصوت خفيض:

- طُعنت منذ فترة قليلة. جسدها لم يتيبس ولم يأكلها النمل.

نظر رامون إليه مضطربًا، فاستمر تِييث في حديثه، خافضًا صوته أكثر:

- على الأرجح، لم يمُرّ أكثر من ساعتين على قتلها.

3

وصل باسكوال مع العربة وركنها قرب الضحية بأقرب صورة ممكنة. ابتعد القوم وظلوا برهة يترقبون إلى أن وضع رامون بحسم ذراعيه أسفل الجثة ورفعها في الهواء. لامست إحدى يديه دون قصد الجُرح اللزق، فأبعدها بخشونة مفزوعًا. انزلق القميص والعيدان، فصارت المرأة عارية مجدداً. هكذا، تلصصت النظرات السقيمة على جلدها المكشوف للعيان مرة أخرى. حاول رامون أن يصون حشمة أديلا الواهنة، فاستدار وتقدم بظهره بين أخاديد الحرث. تراجعت البقية ليفسحوا له المجال، دون أن يُقدمَ أحدٌ على مُسَاعدته. اقترب متعثرًا من العربة، ووضع بِرِقّة جسدها فاقد الروح

فوق ألواح العربة الخشبية. ناوله باسكوال ملاءة ليغطيها. اقترب خوستينو ليتأكّد من أن كل الأمور بخير وحسم أمره:

- هيا يا باسكوال. خذها.

جلس الفتى إلى مقعد الحوذي واستحث البغال على التحرك. تقدمت العربة، مترجرجة والجثة تتأرجح فوق ألواحها الخشبية، ثم مضى القوم خلفها. تأكدت الشائعة بين ثنايا الصف الجنائزي. قالوا: «لقد قُتلت خليلة رامون كاستانيوس».

ظَلَّ خوستينو ورامون ساكنين بلا حراك وهما يرقُبان رحيل الموكب. شعر رامون بأن أوردته تتأجج، وهو لا يزال يختلج من ملامسة اللحم الفاتر. اشتاق إلى الثقل الذي حمله للتو. شعر أنه قد انفصل عن شيء يخصه منذ الأزل. نظر إلى ذراعيه. كانتا قد تغضنتا وعليهما لطخات دم باهتة. أغلق عينيه، وفجأة انبثقت داخله رغبةٌ مدوخة في الركض وراء أديلا ومعانقتها. أربكته الفكرة وظَنَّ أنه يُوشِكُ على فقدان وعيه.

أيقظه صوتُ خوستينو حين ناداه:

- رامون!

فتح عينيه. وجد السماء الصافية الزرقاء، وعيدان السورغم المائلة إلى الحُمرة التي أوشك حصادها. كان الموت ذكرى لامرأة حملها بين ذراعيه.

انحنى خوستينو وأخذ القميص الذي تكوَّر فوق الأرض وناوله لرامون الذي أمسكه بصورة آلية. تلطّخ القميص أيضاً بالحمرة. لم يرتده رامون، بل عَقَده فوق خصره.

سار المفوض نحوه، وتوقف، ثم حَكَّ رأسَه وقال:

- سأعترف لك بشيء. ليس لديّ أي فكرة ملعونة عن هُوِيّة القتيلة.

أفلتت من رامون تنهيدة خفيفة. يُمكن قول إنه هو الآخر ليس لديه أي فكرة عمن هي: لم يرها سوى خمس أو ست مرات، وهو عدد المرات نفسها التي ظهرت خلالها في المتجر لشراء إحدى الطلبيات. سأل عن اسمها لأنها أعجبته كثيرًا، فقد كانت طويلة وعيناها رائقتان. قال له خوان كارّيرا إن اسمها أديلا. هذا فقط كل ما عرفه عنها، لكنه الآن يشعر، بعد أن ضمَّها إليه وهي بمثل هذا العُري ومِثل هذا القُرب، بأنه عرفها طيلة حياته.

غمغم رامون:

- أديلا. اسمها أديلا.

قَطَّب المفوض جبينه، فالاسم وحده لم يكشف له شيئًا.

كرَّر رامون اسمها كأنه يُنطق بمفرده:

- أديلا.

سأله خوستينو:

- أديلا ماذا؟

رفع رامون كتفيه. خفض المفوض نظرته وتفقد الموقع الذي عُثر فيه سابقًا على الجسد واحتلّته الآن بقعةٌ كبيرةٌ من الدم. ظهرت بعضُ آثار الأقدام الواهية على التربة اليابسة والمتشققة. تتبعها خوستينو ووجد أنها تتوغل في الأرض المزروعة قبل أن تتيه في اتجاه النهر. انحنى وقاسها بيده. بلغ مقاس أحد آثار الأقدام شبرًا، وكان لأديلا، أما الآخر فشبرًا وثلاثة أصابع، وكان لقاتلها. كانت آثارها لقدمين حافيتين، وآثاره لحذاء رعاة عالي الكعب.

استنشق خوستينو الهواء وقال ما خلُصَ إليه:

- من قتلها لا هو طويل ولا هو قصير. كذلك، لم يكن سمينًا أو رفيعًا. أليس كذلك؟

أومأ رامون برأسه بصورة لا إرادية تقريبًا. لم يُنصت إليه أصلًا. حرك خوستينو بعض التراب بحذائه وواصل حديثه:

- قُتلت بسكين كبير حادّ، لأنه شَقَّ قلبها من طعنة واحدة.

تفقَّد المكان بحثًا عن السلاح، لكنه لم يعثر عليه، فتابع:

- سقطت على وجهها لكن القاتل، قلب جسدها لينظر إلى وجهها وتركها هكذا.. كأنها عالقة في منتصف نطق كلمة.

مَرَّ سربٌ من الحمام أبيض الجناح محلقًا فوقهما. تابعه خوستينو ببصره حتى تاه في الأفق.

قال بنبرة بدت كأنه يتحدث مع نفسه:

- إنها صغيرة للغاية. ما السبب الملعون وراء قتلها؟

لم تسمح معنويات رامون حتى بالالتفات للنظر إليه. بعدئذٍ، بصق تِيِيث فوق الأرض، أمسكه من ذراعه ومضى معه عبر الدرب.

الفصل الثاني: المدرسة

1

عادا إلى لوما غراندي. وقف من شكلوا الموكب ثابتين بلا حراك، وجثة أديلا فوق العربة، منتفخة من الشمس والتراب. كان بعض الأهالي الآخرين قد انضموا إلى الجمع وتناقلت الألسنة عبارة واحدة بينهم: «لقد قُتلت خليلة رامون كاستانيوس».

اقترب خاثينتو كروث، الجزار وحفار مقبرة القرية، من رامون.

سأله:

- ما الذي يجب علينا فعله؟

تدخل خوستينو منزعجًا بصورة كبيرة. كان عليه أن يسأله هو بصفته ممثلًا للسلطة.

أصدر أمره:

- خذوا الجثة إلى المدرسة.

أنصت خاثينتو إلى تعليماته، لكن أثناء تراجعه لتنفيذها، أوقَفَه المفوض:

- وأبلغ والدَي الفتاة.

نظر خاثينتو كروث إليه مستفهمًا:

- ومن هما؟

رفع تِييث كتفيه ونظر إلى رامون، منتظرًا رَدَّه، لكنه هو الآخر لم يعرف.

قالت إيبيليا، زوجة لوثيو إسترادا:

- أنا أعرفهما. يعيشان على بُعد رُقعتَي أرض من بيت ماثيدونيو ماثيدو.

كان بيت ماثيدونيو ماثيدو قبل عدّة أشهر هو آخر منازل لوما غراندي. مع ذلك، جاء قوم كثيرون من الخارج ليستقروا هنا، بصورة تبدّلت معها حدودُ القرية أسبوعيًا.

طلب تِييث منها بصوت حاد:

- إذن، تفضّلي عليّ بهذه الخدمة يا إيبيليا: قولي لهما ما جرى.

نقلوا الجثة بعد ذلك إلى المدرسة. ترأّسَ رامون الموكب الجنائزي، دون قصد، إذ إن الجمع لم يتحرك، إلا بعد أن تقدّم بأولى خطواته.

مددوا جسد القتيلة على أرضية إحدى قاعات المدرسة. وضعوا أسفلها حصيرة لكيلا يُوسخها التراب وتركوها مغطاة بملاءة باسكوال. أشعل أحدٌ ما أربع شمعات في الزوايا الأربع المحيطة بالجثة. بدأت القاعة تزدحم. تكدّس القوم، واحدًا تلو الآخر، ليصبحوا قريبين بأكثر صورة ممكنة من قلب الأحداث. رغم الهوجة، لم ينتهك الحشدُ المساحة التي احتلها رامون، كأن ثمة حدودًا خفية حددت مكان كل طرف فيهما.

2

من بين الجمع ووسط الحَرّ، اقترب بدرو سالغادو من ابن عمه رامون.

قال له:

- حزين لمصابك في خليلتك يا ابن عمي.

نظر إليه رامون مرتبكًا.

- أي خليلة؟

عانقه بدرو ورائحة الكحول الكريهة تفوح من أنفاسه، ثم همس في أذنه:

- أنا معك يا ابن عمي.

انفصل عنه وخلع قميصه وناوله له:

- خذه، لكيلا تمضي عاريًا في هذه الساعات الصعبة.

أدرك رامون أنه لا يرتدي قميصه، وقال بخجل، مشيرًا إليه وهو معقود حول خصره:

- لا. شكرًا. ها هو ذا قميصي.

نظر إليه بدرو بعينين تائهتين. فتح فمه وضرب صدره:

- يا ابن عمي! قميصُكَ مُتّسخٌ وأنا أعطيك قميصي من كل قلبي.

أمسك رامون القميص حائرًا وشكره على بادرته. بالتبعية، ربّت ابن عمه على ظهره.

قال له بعينين تَعكر صفوهما ببكاء وشيك:

- أنت تعرف يا رامون: أنا هنا في أي شأن تحتاجه.

ثم قبَّله بعدها في جبهته وتمتم وهو يبتعد مترنحًا:

- أعرف أنك أحببتها كثيرًا.

حاول رامون أن يلحق به، ليوضح أن أديلا لم تكن خليلته قط وأنها بعيدة

عنه بقدر بعدها عن بقيتهم، لكن الحشد منعه. وَاسَتْه معرفةُ أن ابن عمه ثَمِل. فكّر: «لم يعرف ما الذي قاله أصلًا».

تفقّد قميص بدرو، ووجد أن رائحة العرق والجعة تفوح منه، لكنه على أي حال أنظف من قميصه. ارتداه وزرَّره، فاكتشف أن مقاسه أكبر منه.

لم تمر أصلًا ساعة على اكتشاف جريمة القتل، لكن شائعة «خليلة رامون كاستانيوس القتيلة» كانت قد انتشرت في كل أنحاء لوما غراندي.

حاول القوم، في تكدُّسهم حول المدرسة، أن يستقصوا ما يُمكن استقصاؤه عن علاقة رامون والقتيلة المجهولة. استغلَّ بعضُهم الفرصة للتباهي، فأكد خوان كارّيرا أنه كان صديقًا لها، رغم أنه لم يوجّه لها عبارة «صباح الخير» إلا مرة واحدة. حدث هذا ذات خميس بعيد في شهر يونيو، ولم تشغل أديلا بالها آنذاك بالرَدّ عليه أصلًا.

أكَّدَ:

– أنا من عرَّفتها إلى رامون، وبفضلي صارت خليلته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

3

كانت أرملة كاستانيوس تقشّر بعض أسماك البلطي التي جاءتها هدية من ميلكياديس وبدرو إسترادا حين لاحظت الموكب الجنائزي على بُعد بضعة مربعات سكنية. لم تهتم بالأمر، إذ اعتقدت أنه أحد الطوافات الدينية الكثيرة التي ينظمها المبشرون صباحًا في أيام الآحاد. عادت إلى شؤونها. أنهَتْ تنظيف أسماك الموجارة وشطفتها كي تنزع بقايا الأحشاء منها. وسط انهماكها في هذا الشأن، وصلت ماريا غايا وإدوبيخيس لوبيرا لاطلاعها على

ما جرى. كشفتا لها الأحداث وكل منهما تخطف الكلمة من الأخرى. لم تعرف شيئًا قط عن غراميات ابنها مع المدعوة أديلا، كما أن رامون لم يعترف لها بأن له خليلة. لم يكتسب الفتى أيضًا العادات المهووسة التي تشي بالمغرمين وربما كانت لتكشف عن عشقه الخفي. لا. هذه العلاقة الغرامية ليست حقيقية. يستحيل أن يفلت منها شيء مهم كهذا. مع ذلك، أصرَّتْ صديقتاها: رامون خليل أديلا، وأديلا قُتلت فجرًا. رفضت الأرملة تصديق هذه النسخة من الأحداث. اقترحت عليها إدوبيخيس لوبيرا أن ترافقهما إلى المدرسة لتتحقق من الأمر. وافقت. ألقت السمك في أحد الدِّلاء، ورشَّته بالملح، ثم غَطّته بقطعة من الورق المقوى، لتتلافى تجمع الذباب حوله، وغادرت معهما.

حين وصلت إلى المدرسة، واكتشفت وجود ابنها عند أحد أطراف قاعة التدريس، تبددت كل شكوك الأرملة تجاه مصداقية النبأ الذي نقلته إليها صديقتاها. بدا رامون حزينًا وموجوعًا بذلك الألم الذي لا يبديه إلا الرجال الذين فقدوا للتو أكثر امرأة يحبونها في هذه الحياة.

شعرت الأرملة كاستانيوس بالحيرة لبضع لحظات، فهل عليها أن تواسي ابنها الصغير أم لا. لم تتجرأ، فقد تفجَّرت من وجه رامون معاناةٌ علمت أنها ستعجز عن تخفيفها. هكذا، خرجت من القاعة، والألم يملؤها.

4

استمَرَّ وصولُ الناس إلى العزاء المرتجل على القتيلة. لم تعُد قاعة التدريس تتسع للمزيد. وَدَّ الموجودون في الخارج أن يدخلوا، أما من في الداخل فلم يودوا أن يرحلوا. رغب الجميع أن يبقوا؛ أن يثرثروا حول العلاقة العاطفية التي انكسرت، وأن يتشمموا الجثة، وأن يلامسوا حزنًا بعيدًا عنهم.

أخرج الفضوليون الطاولاتِ والمقاعدَ والسُّبُّورة وكُلَّ ما قد يُعرقل طريقَهم لزيادة سعة القاعة. فعلوا الأمر بإهمال إلى درجة أن بعض مكاتب التلاميذ انكسرت إلى نصفين. حاولت الأستاذة مارغاريتا بالاثيوس -المُعلمة الوحيدة في لوما غراندي ومحيطها- أن تحتوي الزوبعة البشرية، فاحتدَّت وهي تلوح بيديها:

- أخرجوا هذه الميتة من هنا، فأولادي سيفزعون وسيرفضون المجيء إلى المدرسة.

ذهب احتجاجُها هباء، لأن البالغين لم ينصتوا إليها، إذ أولوا اهتمامهم لما يحدث أكثر من حِدّة مطالبها. في هذه الأثناء، بدا الصغار بعيدين عن الإصابة بالفزع وكأن عدوى هياج الكبار قد أصابتهم، إذ تجمّعوا وراء زجاج القاعة، وهم يسعون قدر استطاعتهم إلى استكشاف هذا الوضع غير المألوف.

وسط كل هذه الجلبة، خلُصَ خوستينو تِييث إلى أمر محتوم: لا بُد أن أديلا خليلةُ رامون كاستانيوس فعلًا. لقد رفض تصديق الأمر في البداية. ظنّ أنها محض ثرثرة. مع ذلك، تكررت العبارة كثيرًا ومن أفواه عِدّة، إلى أن انتهى الأمر بتصديقه لصحتها. تفهَّمَ في تلك اللحظة الهَمَّ البادي على رامون، نظرته الخاوية، وفكَّه المضموم، لكنه عجز عن تفهُّمِ إحجام رامون عن الاعتراف بالحقيقة، ومبررات إخفاء علاقته مع أديلا.

ولأن خوستينو تِييث مفوض أمني، وليس شُرطيًا، لم يعبأ كثيرًا بالعثور على إجابة لأسئلته، وإنما باغته بقوله:

- لقد أخفيت الأمر جيدًا.

لم يلحظ رامون في البداية أن كلمات خوستينو موجهة إليه، لكن المفوض ظل ينظر إليه بإصرار جعله يفهم أنه المقصود، فسأله مستاء:

- أي أمر؟

ابتسم خوستينو وأشار برأسه إلى جثة أديلا المنتفخة:

- مسألة أنها كانت خليلتك.

أذهلت الإجابة رامون. وَدّ أن يُفنّد كلامه فقال متلعثمًا:

- إنها لم.. إنها.. أنا..

لم يحْظَ بوقت لإكمال عبارته، ففي تلك اللحظة صرخ أحدهم:

- الشرطة الريفية قادمة!

الفصل الثالث: كارميلو لوثانو

1

توقفت شاحنتان لونهما أزرق رَصَاصي أمام المدرسة. توقفتا بِعُنف جَلِيّ، فارتفعت سحابةٌ من التراب أفزعت الأطفال. نزل من إحداهما كارميلو لوثانو، رئيس الشرطة الريفية المتمركزة في ثيوداد مانتي. ليس من عادة كارميلو أن ينفذ جولاته في أيام الآحاد، لكنه في ذلك الصباح استيقظ وهو متيقن من أن شيئًا كبيرًا سيحدث في محيط لوما غراندي. قال لمرؤوسيه: "إنه إحساسي". أمرهم بركوب الشاحنتين وقادهم مسترشدًا بغريزته كصقر من دون تردد لقطع أربعين كيلومترًا من الطرق الترابية المتشابكة وصولًا إلى القرية.

- ما الحكاية يا أبناء بلدي؟ لِمَ كل هذه الضوضاء؟

تفاداه من تجمَّعوا أمام القاعة. كارميلو ليس رجلًا سيئًا، لكنه شرطي وهي مسألة كافية لتحاشيه. تمكن لوثانو عبر إحدى النوافذ من مشاهدة الجثة الممددة في وسط القاعة. فرح لما تحقق من صحّة حدس قلبه. لم تخُنْه «أحاسيسه» قط. أمسك كتف غوثمارو كوياثوس، وهو فتى شارد الفكر على الدوام كان قد وصل إلى المكان للتو، وسأله:

- من الذي قُتل يا رفيق؟

لم يعرف غوثمارو طريقة للرد عليه. حاول الإفلات، لكن يد كارميلو منعته.

- ما الذي حدث يا رجل؟ قُل لي.

ظهر خوستينو تِييث عند إطار الباب وغيَّر الموضوع:

- في البداية، ألقِ التحية يا حضرة النقيب.. أم أنك نسيتَ مكارم الأخلاق؟

نظر كارميلو إليه من ارتفاعه البالغ مترين وابتسم. يعرفان بعضهما -هو وخوستينو- قبل أن تصبح لوما غراندي قرية وقبل أن يصبح اسمها لوما غراندي أصلًا، أي منذ كانت مجرد مزرعة مُكوّنة من أربعة منازل. أفلت كارميلو غوثمارو -الذي سارع بالابتعاد عنه- وتقدم نحو خوستينو. وَجَّها لبعضهما التحية كما اعتادا أن يفعلا وهما طفلان.

هتف لوثانو:

- كيف حال الحيوان صاحب الأظافر؟

أجابه خوستينو على الفور:

- حالي كما تراها هنا يا صاحب الحوافر!

وصل كارميلو إلى خوستينو وتظاهر بتوجيه لكمة خطافية إلى كَبِده، فتظاهر المُفوض بتفاديها.

- ما الذي دفعك يا حضرة النقيب إلى قطع كل هذا الطريق إلى هنا؟

- لا شيء يا رفيق سوى أنني استيقظت برغبة مُلِحّة في تحيّتك.

مَدَّ خوستينو يده فصافحه كارميلو.

قال الأول:

- الآن، بما أنك ألقيت التحية، يمكنك أن تعود.

رفع كارميلو حاجبيه:

- آآآه يا خوستينو، أنت وفقراتك المسرحية!

نظر الرجلان إلى بعضهما بضع ثوان، ثم بدأ تِييث في السير قائلاً للشرطي:

- تعال. رافقني. الآذان هنا كثيرة وتسمع ما لا يجب سماعه.

تنحَّى الفضوليون المحيطون بهما جانبًا لكيلا يشعروا أنهم مقصودون بهذه العبارة، فيما صدرت من لوثانو إيماءة لرجاله الثمانية كي ينتظروا.

ابتعدا بضع خطوات حتى احتميا بظل شجرة أكاسيا طويلة. قال تِييث لما اطمئن إلى ابتعادهما عن مرمى الآذان:

- ما حدث يا كارميلو أن إحدى فتياتنا قد ماتت.

- ماتت أم قُتلت؟

بصق خوستينو فوق الأرض الترابية. اكتست بصقته بالغبار واختفت.

- لقد قُتِلت، وبالطريقة المالاغاوية[1] :طُعنت بسِكّين في ظهرها.

مَسَّدَ كارميلو شاربه، من دون تأثر، ثم قطع فرعًا من شجرة الأكاسيا الحلوة ليمُصَّه.

- ومن هي القتيلة؟

هَزَّ خوستينو رأسَه.

- لا أعرف. لم أتحقق من الأمر بعد.

نفض كارميلو ذراعه اليسرى لإبعاد جندب التصق بمعصم ساعته.

---

(1) نسبة إلى مدينة مالاغا. (المترجم).

طارت الحشرة في اتجاه الجمع الذي ظل يتجسس عليهما.

- هل تعرف من قتلها؟

أجابه خوستينو:

- لا أعرف هذا الأمر أيضًا.

سأله لوثانو:

- كم عمر الفتاة تقريبًا؟

فكّر خوستينو بضع ثوان.

- لست جيدًا في حساب الأعمار، لكن سأقول إن عمرها نحو خمسة عشر عامًا.

بلَّلَ كارميلو شفتيه الجافّتين بِلُعابه، ونظَّف العرقَ الراكد فوق حاجبيه بيده وقال:

- الحَرُّ قاسٍ.

ظل ينظر بعدها إلى تموُّجَاتِ الحَرّ الزاحفة عبر الشارع، ثم واصل حديثه:

- كيف ترى الأمر؟ ألا تشُمّ رائحةَ جريمة عاطفية؟

أومأ تِييث برأسه قليلًا، فتابع لوثانو:

- اللعنة على الناس يا صديقي! لا يتحَضَّرُون ولا يزالُ القتل بدافع بعض الحماقات موجودًا.

نظر خوستينو إليه غير مُصَدّق، لأن لوثانو ألحق إصابة قوية بامرأة في شبابه بدافع الغيرة. نجت من الطلقتين اللتين ضربها بهما، فعرض عليها الزواج نادمًا. قبلت المرأة، لكنهما لم يتزوجا إذ ماتت من الاحتقان الكحولي

قبل الزفاف بعدة أيام، ومنذ ذلك الحين بات يعتبر أي فورة عاطفية فعلًا بربريًا.

علَّقَ خوستينو ساخرًا:

- ليست حماقات. المسألة أنك بِتَ عجوزًا ولم تعد تفهم هذه الأمور.

أجابه كارميلو:

- ذيلُك هو العجوز.

رفع بعدها بَصَرَه ونظر إلى الشمس التي بدت كأنها تقرقع وسط هذه الأجواء وتمتم:

- اللعنة. جئت كل الطريق إلى هنا هباء.

ضحك خوستينو ساخرًا.

- ما الذي كنت تنتظره يا حضرة النقيب؟ عملية تهريب؟ طائرة تجار مخدرات؟

أجابه لوثانو:

- شيء يستحق العناء، وليس مجرد موت بلا فائدة.

يعرف خوستينو أن استحالة ابتزاز أحد هي ما يزعج كارميلو في أعماقه؛ فدون وجود مشتبه بهم أو مذنبين، سيصبح إخراج المال من موضوع مثل هذا صعبًا. لم تعنه جريمة الفتاة في شيء أصلًا.

لَعَقَ كارميلو شفتيه الجافتين مجددًا.

- أنت أصلًا لن تدعوني حتى إلى شرب جعة واحدة، أليس كذلك؟

كان سيجيبه: «بالطبع يا رجل سأدعوك»، لكنه تذكَّر أن محل القرية

الوحيد -من أصل متجرين- الذي يفتح في أيام الآحاد ويبيع الجعة المثلجة، هو متجر رامون.

- دعني أقل لك إن الأمر غير ممكن.

أجابه كارميلو:

- يا سلام!

شرح له خوستينو:

- المشكلة أنه لا يوجد مكان.

سأله كارميلو وهو يدعك مؤخرة رقبته:

- والسبب؟

- لأن القتيلة هي خليلة رامون كاستانيوس صاحب المتجر الموجود عند الناصية.

- رامون؟ ابن فرانثيسكا؟

- هو نفسه.

طقطق كارميلو بلسانه:

- شششش.. ألم تقل إنك لا تعرف القتيلة؟

- في الحقيقة أنا لا أعرفها. لم أرَ هذه الفتاة قط ولا أعرف من هي. القليل الذي أعرفه قلته لك الآن، وهي مسألة لم أدركها أصلًا سوى منذ برهة.

حَكَّ لوثانو رأسه حائرًا:

- وأين رامون؟

أجابه خوستينو:

- في الداخل، معها.

ألقي كارميلو فرع الأكاسيا الذي ظل يمُصُّه فوق الأرض واعترض:

- ولا حتى زجاجة جعة ملعونة سأتمكن من شربها! كل هذه المسألة لا تساوي شيئًا.

أخرج من جيبه قلمًا من الحبر الجاف ودفتر ملاحظات صغيرًا، فسأله خوستينو:

- ما الذي ستفعله؟

- سأكتب تقريرًا.

زفر خوستينو بضيق:

- لا تزعجني يا كارميلو. من الأفضل أن تترك الأمور كما هي. أنا سأرتب كل الأمور وسأبلغك حين أعرف شيئًا.

فحص لوثانو خوستينو، ثم هَزّ طرف ذقنه ببطء قائلًا:

- يا رفيق، أي سبب ملعون يدفعك إلى التدخل في شؤون لا تخصك؟

أجابه خوستينو منفعلًا:

- لا. اللعنة. في المرة الأخيرة التي كتبت فيها واحدًا من تقاريرك الملعونة، جاءت الشرطة القضائية لتحشر أنفها في القرية، وهذا فقط لأنك ظننت أن..

قاطعه كارميلو فجأة:

- رامون هو من قتلها، أليس كذلك؟

قطَّبَ خوستينو جبينه مندهشًا، فتابع لوثانو:

- كنت أعرف. هكذا هي الغيرة الملعونة يا رفيقي. ثمة أشخاص يعجزون عن السيطرة عليها.

الفصل الرابع: أديلا تُبعث من جديد

1

هزت صرخة مدوية جدران القاعة الأربعة.

هتفت برودينثيا نيغريتي بعد أن رأت الجثة تتلوى أسفل الملاءة:

- إنها حية!

تبعتها روسا ليون بصرخة أكثر دويًا:

- إنها حية.. إنها.. تتحرك..

نظر رامون بعينيه في اتجاه القتيلة وشعر كأن شيئًا يخدش معدته. أديلا تتحرك فعلًا، فجانبها يرتفع ويهبط ببطء.

تعالى أنين خيرترووديس سانشيث، العاهرة الوحيدة في لوما غراندي ومحيطها:

- ربنا المقدس، اغفر لنا.

قاطع لوثيو إسترادا حالة الهيستريا الجماعية وهمس في أذن رامون: «يا لهن من بهلوانات عجائز»، ثم سار صوب الجثة وعرّاها حتى كتفيها.

تبدلت الوداعة التي اكتسى بها مُحيا أديلا صباحًا، إذ بدا وجهها الآن قاسيًا ومشدودًا، كأنها على وشك الصراخ.

سخر لوثيو:

– عن أي حية تتحدثون وعن أي كلام فارغ؟ لو أنها تهتز هكذا، فالغازات هي السبب.

اقتربت روسا ليون مبهورة للتحقق من فرضية لوثيو، وحينما باتت أقرب ما يكون إلى الجثة، قرصها الرجل قرب ضلوعها:

– احذري، فهي تعض!

وثبت روسا ليون بغير اتزان نحو الخلف، فأفلت عدة أشخاص ضحكاتهم، أما رامون فلا. لقد ضربته صورة أديلا التي ازداد موتها في أعمق أعماقه. لقد تحولت أديلا في ظرف بضع ثوان أمام عينيه. لم تعد المرأة ذاتها التي حملها بين ذراعيه وتركها وهو مرتبك. باتت الآن مجرد قطعة ضخمة من اللحم. ومع ذلك، بدا أن أديلا لا تزال تلتصق به، وتبتلعه، وتُخضِعه.

غطى لوثيو الجثة مجددًا وفرد ذراعيه راضيًا عن العرض الذي قدمه وتسخيف ما فعلته صاحبتا الصوت العالي. عاد بعدها متباهيًا ليدردش مع أصدقائه، وروسا ليون تخرج من القاعة باكية وسط الضحكات.

شدت صرختا برودينثيا وروسا انتباه الكل وجعلتهم ينسون وجود ثمانية من رجال الشرطة الريفية في الخارج. فجأة اكتشفوا أن كارميلو لوثانو ورجاله يركبون الشاحنتين، فيما يودعهم خوستينو بإيماءة صارمة.

رحل رجال الشرطة كما جاؤوا: وهم يرفعون سحابة من التراب تُثير فزع الصغار.

تمكن خوستينو قبلئذٍ، من تبديد أحد الشكوك التي أضمرها كارميلو لوثانو ضد رامون، إذ قال له: «لا يا حضرة النقيب. هذا الولد عاجز عن الإتيان بفعل مثل هذا. نعرفه أنا وأنت منذ كان طفلًا. كيف تظن أنه قد يرتكب فعلًا وحشيًا مثل هذا؟».

بلغت تكلفة دفاع خوستينو عن فتى المتجر مائة ألف بيزو والكثير من الكلام المعسول. برر كارميلو الأمر بقوله: «من أجل البنزين ولشرب بعض زجاجات الجعة الباردة في ثيوداد مانتي، فالخدمة هنا كانت سيئة».

وعد لوثانو قبل رحيله بأنه سيعود بعد أسبوع لـ«تفقد هذا الشأن العالق»، ولأنه ليس رجلًا سيئًا أظهر نواياه الحسنة بكتابة التقرير التالي:

الأحد، الثامن من سبتمبر عام 1991.

الجولة تمت. لم ترصد حوادث خطيرة أو جريمة يجب متابعتها. المنطقة بالكامل في حالة هدوء ونظام.

عاد خوستينو إلى القاعة وتوجه إلى رامون، ثم وبخه:

- أنقذتك من الحبس، لكن عليكِ أن تقدم لي سببًا وراء كل هذا الغموض.

2

صارت القرية فُرنًا بفعل أشعة منتصف الظهيرة. باتت الأجواء في القاعة زلقة ومتشبعة بعرق ورطوبة الأجساد. منعت رائحة العرق المُركزة الحضور من ملاحظة العبير الحلو المر المنبثق من التحلل السريع للجثة، فلم يدركوا الأمر، إلا حين ظهرت عشرات الحشرات الطائرة الخضراء لتتوقف فوق التجلطات الكثيفة المنزلقة من فوق جوانب الحصيرة.

أطلق خاثينتو كروث تحذيره:

- بدأ الذباب يتجمع حولها.

اقترب خوستينو من خاثينتو كروث وسأله:

- وما الذي يجب علينا فعله؟

تجعد أنف خاثينتو كروث وهو يحاول أن يشم الرائحة بصورة أفضل ويحدد درجة تعفن الجسد. قال بعدئذٍ بهدوء:

- علينا أن نسرع في تجهيزها، وأن نضعها في تابوت، فهي في العالم الآخر أكثر من كونها هنا.

تعني كلمة «تجهيزها» في لوما غراندي: إلباسها، وتصفيف شعرها، وتزيينها، ووضعها في التابوت، وإلقاء وداع قصير، ومباركتها، ومن ثم دفنها في المقبرة، فموتى الصيف «ينضجون» بسرعة أكبر. مع ذلك، ففعل كل هذه الأمور الآن غير ممكن، لأن إيبيليا لم تصل بعد مع أبوَي أديلا. الانتظار أمر واجب، وكذلك العثور على طريقة لحماية الجثة من تداعيها الذاتي.

أشار أحد بعد التفكير مليًا في المشكلة إلى إمكانية وضع الجثة في الثلج. ثمة شخصان فقط في القرية يستخدمانه: لوثيو إسترادا لتبريد السمك، ورامون لتبريد الكوكاكولا والجعة. لم تبد الفكرة جيدة للوثيو لأن الحر سيؤدي لانصهار الثلج سريعًا، وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي سينجم بعد تمازجه مع الماء تسريع التعفن وزيادة الذباب. لم ترق الفكرة رامون أيضًا. شعر بالدوار من الفكرة المجردة لتبريد أديلا كزجاجة مشروب مرطب.

استُبعد خيار الثلج.

اقترح توماس ليما، الذي عمل ذات مرة موظفًا في إحدى صيدليات تامبيكو، حقن الجثة بالفورمول، إذ أكد: «ستتحمل وقتًا أطول بهذه الطريقة». مع ذلك، فالفورمول الوحيد الذي يُمكن الحصول عليه في لوما غراندي يخص الأستاذة مارغاريتا بالاثيوس وتستخدمه لحفظ بعض أجنة

الأرانب، داخل عبوة مايونيز خاوية.

مسألة تنازل الأستاذة عن مواردها غير واردة، وبالأخص عقب شعورها بالإهانة من الهرج والمرج الذي ساد المدرسة، كما أن هذه الأجنة الطافية أيضًا وسيلتها البدائية لتقديم العرض اللازم في فصل العلوم الطبيعية ونظرية داروين عن التطور.

لطالما اعتادت أن تقول وهي تهز العبوة الزجاجية أمام طلابها:

- لاحظوا.. إنها تبدو كالسمك.

قبل أن تنفخ خديها وتقول:

- لكن انظروا، إنها أرانب.

لتبتسم بعدها راضية عما تعتبره عرضًا دقيقًا لفرضية العجوز تشارلز.

لا. لن تتبرع الأستاذة بحصتها من الفورمول للقتيلة التي تُفسد قاعة فصولها. لو قبلت أصلًا، فالكمية قليلة وستكفي بصعوبة لإعداد أربع حقن، وهم في حاجة إلى أكثر من ثلاثة لترات لتحنيط الجثة. هكذا، اقترح توماس ليما استخدام كحول 96.

سأل تييث بصوت مرتفع:

- من لديه كحول؟

أجابت امرأتان بقول «نعم»، وتوجهتا إلى بيتيهما لجلبه طواعية. عادت مارتينا بورخا بعد برهة ومعها نصف لتر في عبوة بلاستيكية بيضاء، أما كونراديا خيمينيث فجاءت ومعها شكوكها في زوجها الذي شرب القليل من الكحول الموجود لديها في واحدة من نوبات ثمله المتفجرة.

نصف اللتر لا يكفي، لهذا أصر خوستينو تِييث:

- هل من أحد آخر لديه كحول؟

تذكر سوتيلو بيّا أنه سبق أن رأى بين مقتنياته زجاجة. ليست كحولًا، وإنما من ماء الأوكسجين، وسأل:

- هل ستؤدي الغرض؟

استغرق توماس ليما وهلة في التفكير قبل أن يجيب:

- إنها أفضل من لا شيء.

هكذا، ذهب سوتيلو بيّا لجلب زجاجة ماء الأوكسجين، في حين توجه غوثمارو كوياثوس ليأتي بصبغة البنفسج البلوري، وبرودينثيا نيغريتي لتحضر عبوة صغيرة من مطهر «مرثيولات».

اكتسى وجه توماس ليما بإيماء عابسة، فسأله خوستينو:

- ما الأمر؟

أجابه:

- لا يزال ينقصنا المزيد لتحقيق المطلوب.

توجه البعض إلى منازلهم، أملًا في العثور على عقار أو علاج ما يُمكن حقنه، لكنهم عادوا بأيدٍ خاوية.

اقترح توركواتو غاردونيو، الذي قضى الصباح كله منزويًا في أحد الأركان من دون أن يتحدث:

- وماذا لو حقناها بالـ«تشينغيري»؟

نظر إليه خوستينو باستياء، وبينما هو على وشك توبيخه، قال توماس ليما وهو يقلب الأمر في رأسه:

- ربما يصبح مفيدًا، فهو في نهاية المطاف مصنوع من الكحول.

قال توركواتو مبتسمًا:

- هيا بنا إذن!

ثم أخرج من داخل ملابسه قارورة وناولها إلى توماس الذي أمسكها بعناية، فك غطاءها، شمها ثم شرب جرعة طويلة وقال متحمسًا:

- اللعنة! هذا مشروب رُم معتبر. أراهن على أنه سيؤدي الغرض.

3

مزجوا كحول 96 مع ماء الأكسجين مع شراب الرُم القادم من عدة قوارير مع مطهر الـ"مرثيولات". كل هذا في طنجرة من القصدير. لما باتت التركيبة المُحَنِطة جاهزة، وجب عليهم تحديد الأدوات التي سيستخدمونها لحقن الجثة. ساهم أمادور ثيندياس بحقنة إبرتها صدئة يُفترض أنها تُستخدم لمرة واحدة، بعد عثوره عليها شبه مدفونة في حظيرة بيته. كان قد استخدمها منذ عدة أشهر في تطعيم نعاجه. بالنسبة إلى إيتييل ثيربيرا، فقدمت كتاب أحياء أصفر يضم رسومات تشريحية لجسد الإنسان لتسهيل العثور على الأوردة والشرايين. لم تبق إلا مسألة تحديد من سيحقن أديلا.

سأل خوستينو توماس بتحفظ:

- ألن تحقنها أنت.

- لا يا رجل. هذا الأمر يُخيفني. ليحقنها رامون، فهي خليلته.

ما إن نظر خوستينو إلى رامون، حتى أدرك أن الفتى سيعجز أصلًا عن

إمساك الحقنة بين يديه.

اقترح خوستينو تنفيذ المهمة على عدة أشخاص، لكنهم تملصوا سريعًا من الأمر. «لا. أنا لا. سترتعش أعصابي». «وماذا لو حقنت نفسي؟». «لا. قد يستاء رامون من الأمر». لم يبق أمام خوستينو أمام فيضان الحجج سوى أن يلجأ إلى توركواتو غاردونيو نفسه، الذي كانت القرية كلها تعتبره أخرق ولا يتقن أي عمل.

رغم هذه السمعة، أظهر توركواتو مهارة نادرة في التعامل مع الجثث، فقد حقن جسد أديلا عبر الملاءة ببراعة وإتقان كبيرين، من دون أن يكشف سنتيمترًا واحدًا من جلدها العاري، إذ اتبع تعليمات كتاب الأحياء المصور خطوة تلو الأخرى، وأدخل الإبرة كما يجب ليعثر بدقة على أنسب الطرق لحقن التركيبة المحنطة.

استغرق بضع دقائق وعشرات العيون المنتبهة تراقب ما يفعله. لما انتهى، اعتدل وهو يتعرق قبل أن يسلم الحقنة لتوماس، ويدعك جفونه، ويقول بوجه شاحب ولسان جاف:

- إنه شعور قذر.

في الهواء، طفت رائحة سكرية للكحول، ومشروب الرُم والموت والعرق.

الفصل الخامس: الجُدد

1

رأوا إيبيليا أخيرًا في الرابعة عصرًا. ظهرت في الشارع المترب المتأجج، وإلى جوارها أبوَا أديلا وهما امرأة خمسينية تبدو لحمًا على عظم ووجهها مدبوغ بالشمس، ورجل عجوز طويل أصلع له عينان فاتحتان.

وصلوا إلى المدرسة ودخلوا القاعة. توجهت المرأة مسرعة نحو الجثة، وكشفتها ببطء وغم. لما رأت وجهها، صرخت. سار العجوز نحو الجثة، حين رأى رد فعل زوجته، ثم أغلق عينيه وبدأ يبكي في صمت.

تعرف قلة قليلة من أهالي القرية أبوَي أديلا، بل وأديلا نفسها، فهم من الـ«جُدد»، وهم أولئك العشرون أو الثلاثون مزارعًا الذين ظلوا يَصلون مع مرور الوقت إلى لوما غراندي، بعد أن جلبتهم الحكومة من أماكن بعيدة مثل خاليسكو وغواناخواتو وميتشواكان للعمل في الأراضي التي انتُزعت ملكيتها من تجار المخدرات، وصُنفت كأرض مشاع. لم يتعايش سكان لوما غراندي مع الـ«جُدد»، إذ اعتبروهم دخلاء وغرباء انتهازيين يغتصبون الأراضي التي كانت ستصبح لهم. بالنسبة إلى من وصلوا للتو، فأغلبهم من أصول متواضعة ونشؤوا وفقًا لعاداتٍ محافظة، ويشعرون بالضغينة تجاه اللوماغراندين[1]، إذ بدت لهم عاداتهم متحررة وغريبة. بهذه الصورة، بات

(1) نسبة إلى لوما غراندي. (المترجم).

كل طرف يتجنب ذلك الآخر.

تعاطف الكل مع أبوَي أديلا، سواء كانوا جُددًا أم لا. انتحبت الأم، وهي تفترش الأرض إلى جوار جثة ابنتها، في بكاء مخنوق، في حين ظل الأب يتصاغر متكورًا بضم ركبتيه إلى جسده في انهزام.

تماوج مزيج الصمت والحر في القاعة وسط الأنفاس الساكنة تمامًا. لم ينظر أحد إلى شيء مباشرة، وإنما بطرف عينيه.

أشار خوستينو في الخفاء إلى إيبيليا كي تقترب منه. وبخها بصوت خفيض:

- لِمَ استغرقتِ كل هذا الوقت؟

لهثت إيبيليا كأنها بذلت جهدًا كبيرًا وأجابت:

- لم يكونا في المنزل. وجدتهما يقطعان الصبار في «إل بِرنال».

«إل برنال» هو التل الوحيد الموجود في المنطقة، وللوصول إليه من لوما غراندي، ثمة حاجة لقطع خمسة كيلومترات بين أخاديد، وأودية، وشجيرات.

تابعت إيبيليا حديثها:

- رفضا تصديقي. شق عليّ كثيرًا إقناعهما بالقدوم إلى هنا.. أكدا لي أن أديلا كانت في فراشها، حين توجها إلى التل.

سألها خوستينو وهو يمعن في التفكير:

- نائمة؟

أكدت إيبيليا:

- أجل.

- وفي أي ساعة غادرا المنزل؟

- يقولان إنهما خرجا قبل الفجر.

أنصت من يحيطوا بإيبيليا إليها باهتمام، فقد سبقتها شهرتها كامرأة أمينة لا تتفوه بالكذب وأن ما تقوله يُعتبر صادقًا وحقيقيًا. تعرف إيبيليا الأمر، لهذا لم تُكثر في كلماتها لا الآن ولا حينما قالت باقتضاب:

- لقد قتل أحد ما ابنتهما الوحيدة الباقية.

تناقل الحضور الكلمة همسًا. حينما أدركوا الأمر، شعر البعض بالخجل من دس أنوفهم في مأساة بعيدة عنهم وغادروا القاعة. كانوا أقلية. أما البقية -وهم الأكثرية- فاشتعل اهتمامهم بمتابعة ما ستؤول إليه المسألة.

2

خلقت التعازي المفاجئة، والنظرات المبهمة، والشفقة الحذرة، والأسئلة غير الملائمة يقينًا واحدًا داخل رامون: لم يعد كل ما يُقال بخصوص علاقته مع أديلا مزحة أو شائعة، وإنما حقيقة جديدة ومؤكدة تنمو دقيقة تلو الأخرى، فتزداد صعوبة تكذيبها. تحولت أديلا أمامه إلى مصيدة ولغز.

صارت ذكراه عنها مُربكة. تعاقبت الصور واحدة تلو الأخرى أمام عينيه: أديلا في بلوزتها البيضاء وتنورتها الصفراء أثناء شراء البقدونس من المتجر. أديلا وهي تتيه في شوارع القرية. أديلا عارية وملقاة في صمت داخل حقل السورغم. أديلا الابنة المقتولة. أديلا الملطخة بالدم. أديلا تُلطخه بالدم. أديلا منعكسة في وجه أبيها وألم أمها. أديلا. أديلا. أديلا. أديلا التي

شم رائحتها وحملها. أديلا والخوف من أديلا. أديلا وغرام أديلا. من هي أديلا؟

لم ينتبه رامون في ظل تركيزه الشديد إلى أم أديلا وهي تنهض وتتوجه نحوه. لم يكتشف الأمر إلا وأنفاسها تقابل أنفاسه. حينئذٍ، نظر إلى وجهها الرطب والمتغضن الذي ظل يتفحصه بحِدّة وشعر بالخوف. لقد لاحظت الأمر على الأرجح، لأنها نعَّمت نظرتها وقالت له بعذوبة:

- لقد أحبتك أديلا جدًا..

داهمت العبارة رامون كضربة مكتومة. ود أن يرحل من هناك؛ أن يترك أديلا برائحتها الميتة وكذبة غرامياته معها؛ أن يلعن أم أديلا؛ أن يدفعها ويهتف في وجهها أن تتركه في سلام. ود أن يهرب من زوبعة الهمسات التي تلتهمه، وأن ينهي هذه المهزلة، وأن يقول بعلو صوته إنه ما من شيء مما يُقال عنه وأديلا صحيح. مع ذلك، وجد نفسه يقول بصوت ناعس لم يشعر أنه أصلًا صوته:

- وأنا أيضًا يا سيدتي... أنا أيضًا أحببتها كثيرًا.

3

وصل ناتاليو فيغيروا وكلوتيلدي أراندا إلى لوما غراندي منذ ستة أشهر. جاءا من قرية تُدعى سان خيرونيمو، قرب مدينة ليون في غواناخواتو. كانت أديلا الابنة الصغرى ضمن خمسة أبناء ماتوا جميعًا. توفي الأول بين ذراعَي أبويه بعد أن أتم أربعة أعوام عقب إصابته بالتهاب الأمعاء الغليظة، وانكسر عنق الثاني وهو في الحادية عشرة بعد سقوطه من فوق جواد يركض جامحًا، وغرقت الابنة الثالثة وهي في عمر الثالثة عشرة لدى محاولتها عبور نهر برابو

في رفقة فتى هربت معه. في حين لقي الرابع حتفه، قبل أن يتم التاسعة، بطلقة طائشة فجرت رأسه أثناء سيره قرب مقصف اندلع فيه شجار للسكارى. قال خوستينو: «ما زلنا لا نعرف من الذي طعنها، لكننا سنتحقق من هويته قريبًا». سمعه ناتاليو من دون أن ينظر إليه. ظل يتنفس بصعوبة وهو لا يزال عاجزًا عن تصديق ما حدث.

علم ناتاليو أن اسم القاتل سيتردد في القرية إن عاجلًا أم آجلًا، لكن ثمة أمور أخرى شغلت باله في تلك اللحظة أكثر من الاستقصاء وراء حيثيات الجريمة. سأل بصوت خافت:

- ألا توجد فرصة لاستدعاء قس؟ أود أن يبارك أديلا حبيبتي.

تأمله خوستينو بأسى واضح. لا. الأمر مستحيل: يقيم أقرب قس في ثيوداد مانتي، وما من طريقة للسفر إلى هناك، لأن الشاحنتين الوحيدتين الموجودتين في لوما غراندي بهما عطب، في حين أن الحافلة لا تمر على القرية إلا يومَي الثلاثاء والخميس مساءً. ستصبح الرحلة بالحصان طويلة ومرهقة، ولن تقل عن عشر ساعات في الذهاب فقط. إحضار القس مستحيل. لم يقل خوستينو شيئًا من هذا إلى ناتاليو، وإنما أخبره: «سيُحضرون واحدًا الآن»، ثم أمر بإحضار المبشرَين اللذين يعظان في أرض مشاع باستوريس، بعد أن فكر: «هما كاهنان في نهاية المطاف، ويصليان ويباركان أيضًا».

يُدعى المبشران رودولفو أورنير ولويس فرناندو بريم. ينحدر كلاهما من جذور ألمانية وصلت إلى البلاد في مطلع القرن. يبدوان كأب وابنه، لكنهما ليسا كذلك. يأتيان في كل الآحاد إلى لوما غراندي للوعظ. يحضران في وقت مبكر للغاية وهما يقرعان فوق بعض الطبول المطوقة ودفوف الجوقات الطلابية، وينطقان أحكامًا دينية يدعون بها الخطّائين للندم على أفعالهم السيئة، بين كل قرع والآخر. سمعهما الناس باحترام وتوقير في أول مرة

جاءا فيها إلى القرية، لأن قليلًا منهم حضر أصلًا عظة واحدة في حياته أو يعرف أصلًا صلاة «أبانا الذي». أهداهم عدة أشخاص -بعد أن تحركت عواطفهم- خنازير، ودجاجًا، وديوكًا رومية، في حين اعترف لهم البعض الآخر بخطاياهم، أملًا في الغفران الأبدي وتجنب طريق المطهر. استمع المبشران لهم بأدب وأخبروهم بأنهم غير معنيين بالاعترافات، وأن السبب وراء قبولهما الإنصات إليهم هو رغبتهم في إراحة المؤمنين فحسب، وليس لأنهما يعتبران الأمر ضروريًا.

بدأ المبشران مع مرور الوقت يوبخان الخطّائين ويتوعدانهم بعقاب قاس من قبضة الرب، فاستاء الناس وقرروا السخرية منهما: اعترف توماس ليما لهما بأنه قتل ثمانية رجال لأن الأمر راقه فقط، وتحدث توركواتو غاردونيو معهما عن النكهات المتنوعة للحم الإنسان، وأثارتهما خيرترووديس سانشيث بسرد تفصيلي عن مثلثاتها الغرامية مع شقيقها وأبيها.

تأخرا في اكتشاف المؤامرة، وحين أدركا الأمر، استشاطا غضبًا. ضاعفا من وعيدهما، فسخر أهل القرية منهما أكثر. لم يمنعهما كل هذا من مواصلة الوعظ كل أحد في لوما غراندي، وإذا لم يكونا قد ظهرا في القرية في الأحد الذي طُعنت فيه أديلا، فمرد الأمر أن رودولفو أورنير، وهو أصغرهما، قد لدغه عقرب.

لما حضر باسكوال أورتيغا لجلبهما إلى العزاء المرتجل، شعرا بالسعادة. إنها المرة الأولى التي يطلبون فيها منهما المشاركة في مراسم دينية. لقد أتت مهمتهما في نقر الحجارة يومًا تلو الآخر بثمارها، وبالمثل تحملهما للرفض، والسخرية والسير والشمس في أوجها. مع ذلك، تراجعا حين أدركا أنهما سيترأسان مباركة روح امرأة مقتولة في ظروف غامضة. لم تكن لديهما رغبة للتدخل في مشاكل بعيدة عنهما. حاولا التملص بحجة أن حالة رودولفو لا

تزال حساسة بسبب اللدغة، وأنها قد تسوء لو امتطى حصانًا.

شرح لويس فرناندو:

- قد يصعد السم إلى رأسه.

ابتسم باسكوال بسخرية. يعلم أنها محض أكاذيب، فقد سبق أن لدغته أكثر من عشرة عقارب، ولهذا يعرف أنه ما من شيء جدي يحدث، باستثناء إحساس خانق مدته بضع ساعات يشعر معه المرء أنه يبتلع شعرًا، والتهاب في مكان اللدغة لفترة لا تتجاوز أسبوعًا.

تفهم المبشران من سلوك باسكوال الساخر والمستفز أن حيلتهما ليست مقنعة تمامًا، فاحتارا بين قضاء الليلة في ابتكار حجج سخيفة وبين الذهاب إلى لوما غراندي وتأدية المطلوب بحذر لكيلا يتورطا في لغز هذه الجريمة.

حين خفتَ ضوء المساء، خرجا في النهاية من أرض مشاع باستوريس. قادهما باسكوال أورتيغا عبر أقصر الطرق المفضية إلى لوما غراندي: ذلك الطريق الذي يمر عبر حقل السورغم، حيث قُتلت أديلا. أشار باسكوال لدى مرورهم بالمكان بطرف ذقنه إلى إحدى البقع القاتمة، التي يصعب تبينها في ساعة الغروب وقال: «لقد قُتلت هنا». انكمش المبشران فوق سرجَي جواديهما وتليا بعض الصلوات، راجين لروحها الخلاص.

حين وصلوا إلى القرية مع حلول الليل، لم يجدوا أحدًا في الشوارع أو المدرسة. لقد نقلوا جثة أديلا إلى بيت أبويها.

الفصل السادس: تنورة سوداء وقميص أزرق

1

دخل رامون بيت ناتاليو فيغيروا وكلوتيلدي أراندا وتفقده بنظرته. إنه بيت فقير، جدرانه الأربعة مُجصصة، سقفه من السعف، ومن غرفة واحدة، بدون تقسيمات. الموقد في منتصفه وفي جانبيه ثمة سرير قابل للطي وفراش ثابت. كذلك، ثمة مائدة، وثلاثة مقاعد، وأطباق من القصدير الأزرق، وأقداح بلاستيكية حمراء، ومقالٍ متسخة، ورائحة شيء محروق، وخزانة ملابس كبيرة غير مطلية، وطوابع لعذراء غوادالوبي والمسيح طفلًا، وشعلات مصابيح كيروسين في عبوات «نسكافيه»، ونافذتان: واحدة شمالية والأخرى جنوبية، وفوقهما خرقتان ملطختان كستارتين، وملاءة بالية ككفن تُحيط بجسد أديلا فوق فراشها القابل للطي الذي استيقظت عليه لآخر مرة في حياتها.

جر ناتاليو مقعدًا وعرضه على رامون. شكره رامون على مبادرته وجهزه ليجلس، لكنه في النهاية ظل واقفًا. جلس خوستينو وإيبيليا على المقعدين الآخرين، فيما أفسحت كلوتيلدي لنفسها مكانًا بين شراشف الفراش. ظل خمستهم فقط في الداخل، أما البقية ففي الخارج، متكدسين في الفناء الصغير المحيط بالبيت.

سأل ناتاليو من دون أن يوجه عبارته إلى أحد تحديدًا:

- قهوة؟

اعتذر كل من خوستينو ورامون عن قبول عرضه، أما إيبيليا فقبلت إثر إرهاقها من مسيرة اليوم وعدم تناول أي شيء منذ الصباح.

نهضت كلوتيلدي أراندا لتجهيز القهوة. جففت دموعها وسارت حتى الموقد. وضعت إناء من الفخار فوق اللهيب الذي كان لا يزال مشتعلًا بعد أن نفخت فيه لإحمائه. انتظرت وعيناها تحدقان في الماء الذي أخذ يغلي ببطء، وبقيتهم تراقبها في صمت.

بدأ الدخان يتصاعد من القهوة، لكن كلوتيلدي ظلت ثابتة. هزها ناتاليو برقة لينتشلها من تقوقعها داخل ذاتها، فانتفضت.

- ما الأمر؟

مد ناتاليو إحدى يديه العظميتين وأشار إلى الموقد.

- القهوة.. باتت جاهزة.

تأملت كلوتيلدي الإناء، أحنت رأسها، وبدأت تأن:

- أديلا.. أديلا حبيبتي.

عانقها ناتاليو ورافقها إلى الفراش وساعدها على الاستلقاء.

شعر رامون أنه يختنق. لقد سرقت أنفاس أديلا الميتة الهواء من هذه الغرفة الضيقة، وجعلتها تزداد غرابة.

- ألا تود قدحًا من القهوة؟

رفع رامون عينيه نحو الصوت ونظر إلى القدح الذي يتأرجح في يدَي ناتاليو أمامه. لا. لا يود. ما يوده هو أن يفر ويركض بعيدًا إلى أن يصطدم بشيء ما. يود أن يبتعد بكل ما أوتي من سرعة عن الجثة الضخمة التي صارتها أديلا.

قال له: «شكرًا»، وأخذ القدح الساخن بين يديه. أخذ رشفة وجلس على المقعد الذي عرضه عليه ناتاليو سابقًا.

2

لملمت كلوتيلدي شتاتها بعد أن بكت لفترة وشرعت تبحث عن ملابس تُلبسها لأديلا قبل دفنها. فتحت خزانة الملابس وتفقدتها بعناية. أخرجت قميصين وفتشت مجددًا، كأنها تبحث عن شيء ضائع. أفرغت محتويات الخزانة بيأس، وفحصتها غرضًا تلو الآخر. عضت شفتها حين انتهت، والتفتت بوجهها نحو زوجها. قالت مهزومة:

- تنورتها السوداء وقميصها الأزرق ليسا موجودين.

هما أجمل قطعتَي ملابس لديها. إنه رداؤها المفضل. استخدمته مرتين فقط في مناسبتين اعتبرتهما خاصتين: الأولى حين أتمت الخامسة عشرة في حفل تقديم الخمس عشريات في سان خيرونيمو، أما الثانية ففي يوم تسلم شهادة إنهاء الدراسة الابتدائية في قريتها. لم ترتد أيًا منهما مرة أخرى حتى ذلك الأحد.

تزايدت حدة غم كلوتيلدي حينما لم تجد التنورة السوداء والقميص الأزرق، إذ خططت أن تُلبسهما لها في المآتم، فانحنت من فرط يأسها لتستند إلى خزانة الملابس الخاوية وهي تحرك رأسها من جانب إلى آخر.

تقدم ناتاليو نحو زوجته. أخذ الملابس القليلة الملقاة فوق الأرضية، وأمسك قميصًا أبيض وتنورة صفراء. قال وهو يناولهما لها:

- ألبسيها هذا.

أمسكت بهما كلوتيلدي كمن يتلقى شيئًا بالغ القيمة، ضمتهما إلى صدرها، وظلت تتحسسهما لفترة طويلة.

تمكن رامون وسط الظلال المشعشعة من تمييز الموجود بين يدَي المرأة وإذا باختلاج جليدي يهزه من الداخل: إنها الملابس ذاتها التي رأى أديلا ترتديها في ذلك المساء الذي تعرف فيه إليها. شعر مجددًا بأديلا تتبرعم داخله. أديلا الأخرى. أديلا ذات العينين الصافيتين، والنظرة الرائقة، والرقبة المصقولة، والصوت الأجش بعض الشيء، والضحكة التي يصعب ملاحظتها، ثم أديلا الثانية: أديلا في هشاشتها وعريها وصمتها؛ أديلا وهو يعانقها وهي تحرقه. أديلا والجثة الضخمة التي صارتها أديلا. رامون ونسختَا أديلا، ومعهما أديلا الميتة؛ الميتة جدًا.

3

شعرت كلوتيلدي بالعجز. لم تتمكن من مواجهة اللحم المنتفخ والعظم الذي نادته ذات مرة «ابنتي». لم تتجرأ على النظر إليها، وعلى وجه الخصوص لمسها. كان من المستحيل أن تتولى مسؤولية كسوتها، أو تصفيف شعرها الهائج أو ملامستها لمحو ابتسامة الموت من على وجهها. تأمل ناتاليو زوجته وهي مهزومة. سبق وأن تكفلت بالمسؤولية الشاقة لتجهيز وتكفين بقية أبنائهما الميتين، لكن تكفين أديلا كان يعني تكفين جزء من ذاتها؛ ذلك الجزء الأخير الباقي من الأمل.

أخذ ناتاليو القميص الأبيض والتنورة الصفراء في صمت وقدمهما إلى إيبيليا التي تفهمت فورًا ما يطلبه منها بإيماءته، ورغم أنها كانت مرهقة أكثر من اللازم للاضطلاع بالأمر، لم تتجرأ على الرفض. أخذت الملابس

وضيقت عينيها وسألت:

- أي حذاء سترتديه؟

التفت ناتاليو نحو زوجته بحثًا عن رد. هزت كلوتيلدي رأسها. لم يكن لدى أديلا سوى حذاء واحد، ولا بد أنها ارتدته صباحًا، فأجابت بخجل:

- ليس لديها أحذية.

بقيت إيبيليا وحدها مع الجثة. جلست على حافة السرير القابل للطي، تناولت آخر رشفة من قهوتها، سوت شعرها وتنهدت. أمسكت الملاءة التي تغطي أديلا من أحد أطرافها وجرتها ببطء، فانبعثت رائحة عفنة حادة بعد تحرر الجثة من غطائها الجنائزي. شعرت إيبيليا بحرقة في أنفها وغطتها بيدها لتفاديها. ذابت نفحة العفن سريعًا وسط الأجواء لتترك في الغرفة رائحة خفيفة تشبه الخل. بدا جلد القتيلة، الجاف إثر المزيج الذي حُقنت به، شبيهًا بالورق المقوى. رغم وجود بعض الأثلام الوردية التي شقت ذراعيها وساقيها، ارتسم تعبير صاف على وجه أديلا، كأنها قد ارتاحت في النهاية من الإعياء الذي تسببت فيه بنفسها.

رفعت إيبيليا نظرتها لكيلا تنهار أمام مظهر الجثة. حاولت التفكير في شيء بعيد تمامًا، إلا أنها فشلت، فحجم الموت داخل الغرفة فاق كل الحدود. علمت أنها لن تتمكن من تحضير أديلا بمفردها. استندت إلى ذراعيها كي تنهض. ظلت واقفة. حركت كتفيها من أعلى لأسفل ومضت في اتجاه الباب.

اقترب منها ناتاليو بسرعة وسألها متوترًا:

- هل انتهيتِ؟

- لا ليس بعد.. أنا في حاجة إلى من يُساعدني.

تقدمت إيبيليا خطوة وتفقدت عشرات الأطياف المحيطة بها. جالت بنظرتها ببطء. اكتشفت طيفَي أستريد مونخي وآنيتا نوبوا إلى جوار السلك الشائك المحيط بالفناء، وهما فتاتان تعيشان بالقرب من هنا وتعرفهما منذ كانتا طفلتين. كانت قد رأتهما ذات مرة مع أديلا.

نادت عليهما، فاقتربتا والفضول يأكلهما. سألت بعدها الوجهين اللذين انمحيا من أمامها بفعل الليل:

- هل تساعداننني في تجهيز الفقيدة؟

لم يُسمع في الثواني اللاحقة إلا إيقاع تنفس الفتاتين وهما تدرسان إجابتهما.

قالت آنيتا فجأة:

- أنا لا.

توجهت إيبيليا بنظرتها إلى أستريد ولمحت وسط الظلام إيماءة موافقة خفيفة من رأسها.

4

دخلتا البيت في صمت. تأملت أستريد على ضوء الشعلات المضاءة بالكيروسين الجثة الموضوعة فوق الفراش القابل للطي. حلّقت مجموعة من الذباب فوق عينَي أديلا نصف المفتوحتين وهي تحاول أن تشرب من دموعها الأخيرة. شعرت أستريد بغثيان لزج يحرق سقف حلقها. ودت أن تبصق؛ لا فقط من اشمئزازها، وإنما أيضًا من غضبها. غضبها من الذباب، من كل هذا الصمت، من سكون أديلا العنيد.

هزت إيبيليا خرقة لتهش الذباب، فحلّق لفترة وجيزة ثم عاد ليقف فوق

عينَي القتيلة.

طلبت من أستريد:

- ساعديني في رفعها.

كزت أستريد على أسنانها وضمت قبضتيها لتتخذ قرارها. تشجعت ووضعت يديها بحذر شديد أسفل ظهر أديلا، وما إن لامست جلدها الخشن، حتى أدركت أن رؤية الميتة شيء مختلف تمامًا عن ملامستها. اكتشفت أن ذلك الشيء الموجود هنا ليس أديلا، أو على الأقل أديلا التي عرفتها منذ شهور قليلة وأصبحت صديقتها. إنها ليست أديلا التي تحدثت وضحكت معها واعترفت لها بأسرارها. ليست أديلا ذات النظرة الشفافة. لا. هذه الكتلة المصنوعة من معجون النشا والورق المقوى ليست أديلا.

قالت لها إيبيليا حين رأتها مرتبكة:

- لا تجزعي، وإلا سأجزع أنا أيضًا، وحينئذٍ لن يصبح لدينا شخص موجود لتحضيرها.

أجابت أستريد بحزن:

- أنا في خير حال. المشكلة فقط أنني لست معتادة على رؤيتها هكذا.

أظهرت إيبيليا لها القميص:

- علينا أن نسرع.

داعبت أستريد خصلات شعر أديلا، وقالت بشجن:

- طلبت مني آخر مرة تقابلنا فيها أن ألف شعرها في ضفيرة.

من بعيد، تردد صوت ضرب بمطرقة.

قالت من دون أن تتوقف عن مداعبتها:

- كانت مغرمة.

استفسرت إيبيليا:

- مغرمة بمن؟

- لا أعرف.

- برامون؟

- من يعرف! أنا لا أعرف.

لم تستمر أستريد في حديثها. حبست بكاءها وحبست دموعها، ثم رفعت بحسم جثمان الورق المقوى الموجود أمامها، لإلباسه.

فرغ خاثينتو كروث من الدق بالمطرقة ونعّم الخشب الداخلي للتابوت بورق صنفرة. لقد صنع تابوتًا من بقايا ألواح البيت المهجور الذي سكنه خيريمياس مارتينيث في آخر سنوات حياته، وتحول إلى مصدر خشب أغلبية التوابيت التي تحتاجها لوما غراندي.

وصل باسكوال بالعربة مستعدًا لنقل التابوت. نزل من فوقها واثبًا وتوجه نحو خاثينتو. قال وهو يشير إلى المبشرين:

- جلبت الكاهنين، والقتيلة ارتدت ملابسها وباتت مستعدة. ينقصنا التابوت فقط.

أضاف خاثينتو:

- وحفر القبر.

ابتسم باسكوال من دون أن يرغب في الابتسام فعلًا. سار حول التابوت

وهو يتفقده بدقة.

- اسمع.. أليس كبيرًا بعض الشيء؟

نظر خاثينتو إلى صنع يديه ونفى برأسه:

- لا. إن حجمه جيد.

أضاف:

- مقاسه خطوتان كبيرتان والفتاة لم تكن طويلة جدًا.

نظر خاثينتو نحو السماء التي خلت من القمر ثم أدار وجهه ببطء نحو باسكوال:

- يقولون إن الموتى كلما مر عليهم الوقت في موتهم، يصيرون أضخم وأعرض.

همهم باسكوال:

- صحيح. هذا هو ما يقولونه.

ثم أمسك التابوت من أحد طرفيه وأشار إلى خاثينتو كي يرفعه كلاهما.

الفصل السابع: القاتل

1

دفنوا أديلا في المقبرة القديمة إلى جوار نهر غواياليخو بالقرب من المكان الذي قُتلت فيه. حفروا قبرًا عميقًا لتفادي أن تُدمره فيضانات النهر الضخمة في موسم الأمطار. يعتبره الكثيرون أحزن دفن حضروه، بل يعتبرونه أصلًا أحزن من دفن دونيا باوليتا إسترادا ودون ريفوخيو لوبيث، مؤسسَي القرية. لم يكن ثمة صراخ أو بكاء، وإنما صمت مطبق وليل بلا قمر.

اقتصر ما فعله المبشران، بعد أن أصابتهم عدوى الذهول السائدة، على إلقاء وداع مقتضب ومباركة قصيرة. تفرق القوم بعد انتهاء المراسم في مجموعات صغيرة انطلقت نحو لوما غراندي وسط ظلمات الدروب التي اكتست بالعشب.

سار أغلب الرجال وراء رامون حتى المتجر. ثمة أمور كثيرة غير واضحة وما من شيء أفضل من استبيانها مع جعة في اليد.

علم رامون جيدًا أن الليلة ما زالت في بدايتها بالنسبة له. لم يجد سبيلًا للتراجع ونفي صحة العلاقة -بعد وقوعه هكذا في مصيدة غرام لا وجود له- إلا وكان يُفضي إلى اتهامه بالجبن ونقص الرجولة. بداية من الآن، وجب عليه أن يعيش، كأن هذا الماضي الخيالي أمر واقع.

2

لا يُحسَم أي شيء في لوما غراندي مباشرة أو بشكل قاطع، حتى ولو تعلق الأمر بجريمة. لا بد أن يُمر أولًا بنسيج من المحادثات الغثة التي تتقدم رويدًا رويدًا كخيط يمضي في ثقب إبرة نحو نواة الموضوع. لهذا السبب، سأل خوستينو تِييث لوثيو إسترادا على السعر الذي تدفعه الشركة الوطنية للدعم الشعبي مقابل طن السورغم، بعد أن ازدرد رشفة من الجعة لترطيب حلقه.

أجابه إسترادا باستياء واضح:

- ثلاثمئة وخمسون ألف بيزو.

هتف ماثيدونيو ماثيدو:

- المبلغ لا يكفي وهذه الأسعار لا تستحق عناء الحصاد.

تدخل توركواتو غاردونيو:

- حتى ثمن الحبوب لا يُدفع أصلًا.

أضاف أمادور ثينديخاس:

- ولا حتى إيجار الدَرّاسات نفسها.

قال رانولفو كيرارتي الذي أطلقوا عليه لقب «لا أميستاد»[1] بسبب ميله الدائم للحديث:

- لهذا لم أعد أزرع.

---

(1) "لا أميستاد أو La Amistad" تعني "الصداقة"، ما يفسر بقية الجملة بخصوص ميله الدائم للحديث وعقد الصداقات. (المترجم).

يشتغل كيرارتي الآن ببيع لحوم الأيائل التي يقتلها ليلًا حيث يُدوِّخها بضوء مصباح مثبت فوق دراجة ويطلق عليها النيران من بعيد ببندقية مزودة بماسورة مزدوجة عيار ستة عشر.

أكد ميلكياديس، الشقيق الأصغر للوثيو وبدرو إسترادا:

- سنتوقف نحن أيضًا عن الزراعة، سنعمل في «بيسنس»[1] الصيد.

أضاف لوثيو:

- اشترينا بالفعل أربع شبكات لاستخدامها في بحيرة السد.

سأل خوستينو تِييث:

- ثمة الكثير من سمك الموجارة هناك، أليس كذلك؟

أكد ميلكياديس:

- بالضبط. الأسبوع الماضي، أخرجنا مائتي كيلو.

استفسر خوستينو:

- وهل ما زلت تخليها؟

أجابه لوثيو:

- لا. لم أعد منذ سُرق مني سكين تخلية اللحم.

- أي سكين؟

---

(1) وردت في النص الإسباني مكتوبة بإنجليزية خاطئة هكذا "bisnes" لمحاكاة نطق الشخصية الخاطئ لها، والمقصود بها طبعًا كلمة "business" بمعنى "عمل أو تجارة"، ولهذا فضلت كتابتها بالعربية بالصورة التي ظهرت أمام القارئ في الأعلى، اتساقًا مع روح النص الأصلي. (المترجم).

- ذلك الذي أهداه لي السيد لارّي. إنه سكين مسنون ورفيع.

- السيد لارّي؟

- أجل. الصياد الذي يأتي من مكسيكو سيتي لقتل الإوز. ذلك الرجل الطويل ضخم الجثة.

- آآآه. نعم.

تناول خوستينو مجددًا جرعة من الجعة ومضمض بها حلقه عدة مرات، قبل أن يبصقها.

- قل لي.. من الذي سرق السكين في ظنك؟

ابتسم لوثيو أمام السؤال:

- لا أعرف فعلًا. لو أنني أعرف، لأخذته منه.

واصل خوستينو تِبيث حديثه:

- ليتك تعرف لأن لديّ حدس يقول إن هذا هو السكين الذي قُتلت به الفتاة.

صمت لوثيو والبقية. تذكر رامون أنه رأى السكين فعلًا. خوستينو محق: وحده سكين حجمه ونصله هكذا قادر على اختراق أديلا بمثل هذه الدقة.

غيَّر توركواتو غاردونيو سياق الحديث. قال وهو ينظر في اتجاه الجنوب:

- يُهيأ لي أنها ستمطر خلال الأسبوع المقبل.

التقط ماثيدونيو خيط المحادثة:

- فعلًا، فمنذ نحو ثلاثة أيام ثمة رياح خفيفة تحاول أن تهب علينا من أواستيكا.

قال أمادور ثينديخاس:

- القليل من الماء ليس أمرًا سيئًا. سينتهي المطاف بنمو السورغم.

قاطعه توركواتو:

- السورغم الملعون.. لو أنني عرفت أنهم يدفعون ثلاثمائة وخمسين ألف بيزو، فما كنت لأزرعه.

قال بدرو سالغادو:

- كان علينا أن نزرع العُصفر، كحال إتييل.

أصدر خوستينو حكمه:

- فعلًا. يدفعون ضعف الثمن، لكن لا، نحن زرعنا السورغم، ما الحيلة؟

توقف النقاش بضع ثوان لم يتحدث فيها أحد، لكن توركواتو كسر الصمت فجأة:

- أراهن أنها العاشرة وعشرون دقيقة الآن.

التفت الكل لينظروا إليه متعجبين، فأصر توركواتو:

- أراهن.

سأل بدرو سالغادو:

- لماذا؟

- لأنهم يقولون إن ثمة ملاكًا يمر على الجالسين كل عشرين دقيقة ولهذا يبقى الناس صامتين.

- إنها فعلًا العاشرة وعشرون دقيقة.

ابتسم توركواتو بزهو وقال:

- لقد أخبرتكم.

مر ملاك آخر من فوقهم لأنهم جميعًا صمتوا. يبدو أن رانولفو كيرارتي «لا أميستاد» ظل يراقب مسيرة الملاك حتى رحيله، لأنه أكد فجأة وبدون مقدمات:

- أنا أعرف من الذي قتل الفتاة.

سأله مارثيلينو ويترون:

- وكيف لك أن تعرف؟

اجتر «لا أميستاد» إجابته بين رشفتَي جعة:

- لأننا منذ بضع لحظات كنا نتكلم عن العصفر، وتذكرت أنني الليلة الماضية كنت أمضي بمصباحي في أراضي إتييل، ولأنني لم أجد أي أيائل، انطلقت في طريق المروج المجاورة للنهر..

أوقف «لا أميستاد» العبارة في منتصفها ليأخذ رشفة أخرى من الجعة، ثم نظف بظهر يده الرغوة التي التصقت بشاربه وتابع:

- كنت فوق دراجتي، وسمعت والمصباح مطفأ، أحدًا يسير عبر الدرب، وحين أضأته رأيت على بعد خمسين مترًا رجلًا في شد وجذب مع امرأة ترتدي قميصًا مقطوعًا.

أوقف «لا أميستاد» حكايته مجددًا، فمرات قليلة فقط هي التي أسر فيها جمهورًا بمثل هذه الصورة. لم يُبدِ استعدادًا لإهدار الفرصة. قال لرامون:

- انتهت جعتي.. هل ستقدم لي واحدة أخرى؟

دخل رامون المتجر وأخرج واحدة من المُبرد. نظفها بخرقة، نزع غطاءها وقدمها له، فاستأنف رانولفو حكايته:

- أعتقد أنني أفزعتهما لأنهما بعدها توغلا في الجبل. حين رأيتهما يمضيان عبر شجيرات الأويساتشيرا، أطفأت المصباح وقلت: ما الخراء الذي سأورط نفسي فيه، إذا كان الأمر لا يهمني أصلًا؟ قولوا لي إنني مخطئ لو أنكم تظنون أن تدخل المرء في الأمور التي لا تعنيه ليس أمرًا قبيحًا. إنه أمر قبيح، أليس كذلك؟

أومأ خوستينو، الذي ظل «لا أميستاد» يوجه له كلامه طيلة المحادثة، برأسه وفعلت بقيتهم نفس الأمر، فواصل رانولفو حديثه:

- ورغم أنني لم أرغب في أن أورط نفسي، فقد شاهدت بوضوح من هو هذا الشخص. لم يكن سوى «الغجري».

أخَّر «لا أميستاد» مجددًا استئناف حديثه، لأنه علم أن أحدًا لن يقاطعه أو يغير الموضوع، كما يحدث دائمًا. شرب بعضًا من جعته، واستمتع بطعمها، وواصل:

- لم أعرف في الليلة الماضية من التي كانت معه، لكن الآن خلصت إلى أنها الفقيدة.

ظل خوستينو ينظر إليه بإمعان:

- ألا تتفوه بالأكاذيب؟

صنع رانولفو صليبًا بإصبعين وقبلهما:

- لا.. بحق الرب.

سأل مارثيلينو:

- وفي أي ساعة تقريبًا حدث هذا؟

قال «لا أميستاد» فورًا:

- نحو الرابعة أو الخامسة فجرًا.

فجأة، ضرب لوثيو إسترادا جبهته بكفه وقال:

- أتذكر الآن.. لطالما أبدى هذا «الغجري» الملعون إعجابه بسكيني. لا بُد أنه من سرقه مني.

تدخل توركواتو متحمسًا:

- ابن العاهرة هذا هو من قتلها. لو أنه لم يفعلها، لكان يتحدث معنا الآن بكل هدوء. لم أره منذ الأمس.

فيما بقي من الليل، تكفلت الجعة بإحماء رؤوس هؤلاء الرجال.

الفصل الثامن: غابرييلا باوتيستا

2

إنه الليل والحر ليس مستعدًا للتهاون. لا الحر ولا التراب. يلطخ الحر والتراب الأجساد، فتتعرق الجلود وحلًا. تطفو زوابع من البعوض والناموس في الهواء الساكن والحارق، فتطن بجوار الآذان وتلدغ بلا هوادة. تعوي ثلاثة من حيوانات القيوط في الجبل وتتلوى الحيات ذات الأجراس بين حصى الأرصفة. تدنو البهائم من شجيرات المسكيت لتتخذها ملاذًا من شمس لا تزال حرقتها مستمرة رغم الظلام. من بعيد، يُسمع النهر وخواره المطمئن. الحر. الحر الملعون يستعبد كل شيء.

لا تنام غابرييلا باوتيستا. الكرب يمنعها. الخوف أيضًا. تنتظر قلقة من عودة زوجها في أي لحظة ليشبعها ضربًا، وعلى الأرجح قتلها. ليس لديها مكان للفرار أو الاختباء. تحتفظ بأمل طفيف عن جهله بالأمر، لكن لا: لا بُد أنه أدرك الآن خيانتها. لو أن وصوله تأخر، فمرد الأمر أنه على الأرجح مضى في طريقه كي يدفع «الغجري» ثمن إهانته له.

يصر الباب، فتتشبث غابرييلا بالفراش. إنه هو وسيقتلها. تمر دقيقة ببطء، ثم دقيقة أخرى. لا يتكرر الصرير، فتسند غابرييلا رأسها إلى الفراش وتغلق عينيها. تتعرق عرقًا منبعه دواخلها. نفس العرق الذي انساب فوق جسدها في الليلة السابقة حينما كشفها ضوء متوحش ولحمها يتمازج مع لحم «الغجري». إنه ضوء بلا اسم. إنه ضوء لحوح وصمت أعماهما في وسط

الليل وكشف عُريهما.

هتف «الغجري» حينئذٍ، في وجه الضوء الصامت:

- مساء الخير.

لم يأت رد. فقط الصمت والضوء. اختبأت غابرييلا باوتيستا وراء «الغجري» وتعرقت. تعرقت الخوفَ نفسه.

كرر «الغجري» عبارته:

- مساء الخير.

لا شيء. الضوء والصمت فقط، ومعهما إحساس بارد بتسممهما من قِبل هذا الصمت.

لمح «الغجري» وسط الظلام لمعة ماسورة سلاح، فدفع غابرييلا نحو الجبل وانطلقا يركضان والضوء خلفهما. من يعرف من الذي كان وراء الضوء! ركضا قدر استطاعتهما، وهما يتعثران، فتأجج اللهيب في أقدامهما من الشجيرات الشائكة، وانخدشت أذرعهما وسيقانهما إلى أن توقف الضوء عن التوغل داخل دغل الفروع والأغصان الكثيف.

تكورا أسفل الأوراق الكثيفة لشجرة أكاسيا حلوة بأنفاس متهدجة وهواء الليل الساخن يفيض فوقهما. لم ينطقا ولو كلمة واحدة. لملمت نفسها فوقه، فقبلها وتحسسها. تركته غابرييلا باوتيستا يقبلها ويتحسسها أكثر وأكثر وخوفها من نفسها يتنامى كلما مر الوقت.

مارسا الغرام. نهض «الغجري» بعد أن فرغ منها. زرر سرواله وانطلق من بين شجيرات الأويساتشيرا. ظلت هي ساكنة في مكانها، ملطخة بوحل الجنس والخوف. سمعت هدير شاحنة «الغجري» من بعيد وهي تمضي عبر

الدرب. أنصتت إليه وهو يختفي فجرًا. نهضت ونفضت فستانها، ثم ارتدت ملابسها. انطلقت لتسير بخطوات مترنحة. لقد كشفوها وليس لديها مكان لتهرب إليه.

وصلت إلى بيتها واختبأت في المكان الوحيد الذي ظنت أنه يمكنها الاختباء فيه: وراء الفراش. ظلت هناك طيلة هذا الأحد حيث تسمع الآن صرير الباب، تنظر إليه وهو ينفتح، فترى بدرو سالغادو، زوجها، وهو يدخل.

2

قاد حتى وصل إلى حد السد. أوقف شاحنته على جانب الطريق. أطفأ المحرك وفرد جسده على ظهر مقعده. تذوق من جديد كل واحدة من قبلات غابرييلا باوتيستا. لقد أصابته المرأة بالجنون كما أصابها هو أيضًا، ومع ذلك كان يعرف أنه لا يمكنه العودة إلى لوما غراندي لفترة معتبرة. عليه أن ينتظر الأنباء وألا يعود إلا حين يتأكد من عدم وجود أي قيل وقال في القرية.

نزل من المركبة وسار حتى حافة السد. ثمة خدوش في كاحليه، وجبهته، وساعديه ويديه. خلع ملابسه، وكومها، ووضعها أسفل بعض الأجمات. نزل إلى الماء الفاتر وفرك جسده ببعض الطمي لتطهير الخدوش والقضاء على شعور الحرقة. حلق سرب من طيور الحذف[1] على ارتفاع منخفض. أفزعته رفرفتها التي بدت كصفير وجعلته يثب نحو الخلف. فكر: «ملاعين! ما زلت متوترًا من مطاردة الليلة الماضية».

(1) أحد أنواع البط الطائر. (المترجم).

نظف قشرة الطمي التي دهن بها جسده. سبح لفترة وهو يسلي نفسه بمحاولة صيد أسماك المنوة[1] الصغيرة بيديه. خرج من الماء، نشف جسده بقميصه وارتدى سرواله. لم يود أن يظل عاريًا، فهو صباح الأحد وقد تمر أحيانًا بعض السيارات العائلية. أراح جسده إلى إحدى الصخور البارزة من السد ونام.

لم يعرف أحدٌ أن اسمه خوسيه إتشيبيرّيا بيرّيوثابال. يدعوه أغلب الناس ببساطة «الغجري». وُلد في تامبيكو كابن غير شرعي لبحار باسكي ونادلة في متجر «إليتي» للمثلجات. ورث من أبيه طوله وعينيه الخضراوين، ومن أمه العظام العريضة، والرشاقة، والبنية العضلية والقدرة المميزة على مواجهة الصعاب.

طاب له منذ كان مراهقًا، الارتباط بنساء متزوجات. لم يعرف قط سببًا للأمر، إلا أن أصدقاءه اعتبروا عدم زواج أمه قط مردًا للمسألة. وهو في عمر الخامسة عشرة، انهال عليه زوج غاضب بضربات ساطوره، لكن «الغجري» نجا بصعوبة من الجراح الخمسة التي مزقت ظهره. عالج إصاباته وتدثر بندباته كمصدر فخر دائم.

تورط بعدئذٍ بثلاث سنوات مع زوجة موظف في الجمارك. باغته الرجل في الفراش وأخرج مسدسه «براونينغ» من عيار 32 وثقب صدره بثلاث طلقات.

أقسم على الانتقام حين شُفي. عرف أن الرجل الذي أطلق النار عليه قد فر إلى تيمبويال، فذهب بحثًا عنه، ولم يعثر عليه، وإنما وجد نفسه على النقيض مع سمسار مبيعات أدخله إلى عالم التجارة الجوالة للأغراض المنزلية، ومنذ

(1) نوع من الأسماك الصغيرة ويشبه نوعًا ما سمك البساريا. (المترجم).

ذلك الحين بات يتجول من قرية إلى أخرى بلقب «الغجري».

اكتشف بعد فترة مزايا دمج عمله مع تهريب الأغراض الصغيرة المصنعة في تايوان. لو تعلق الأمر بمقلاة، فيُضاعف سعرها مرتين، ولو بساعة «كوارتز»، فست مرات. ورغم اضطراره لتقاسم الغنيمة مع الشرطة الريفية والقضائية الخاصة بكل ولاية، بل والشرطة الفيدرالية ورؤساء البلديات، ومندوبي أراضي المشاع، تحصَّل دومًا على أرباح جيدة.

تمكن من شراء شاحنة «دودج» لها صندوق من الألومنيوم عن طريق مدخراته، بل وبناء بيت صغير في تامبيكو. مع ذلك، لم يحظ بسكن ثابت قط. كان يبيت في سيارته على جانب الطرق أو يُبادل بضاعته للحصول على السكن والطعام. اعتاد أن يذهب إلى لوما غراندي مرتين سنويًا، إلى أن بدأ ذات مساء غرامياته مع غابرييلا باوتيستا، فغيّر جدوله بداية من تلك اللحظة، ليزور القرية مرة شهريًا.مكتبة سُر مَن قرأ

اعتاد أن يقيم في لوما غراندي في بيت روتيليو بوينابينتورا، وهو مزارع مسن أعمى اكتشف طريقة جديدة لمواجهة العتمة عبر الـ«ووكمان» الذي أهداه له «الغجري»، وعرفانًا بالجميل عرض عليه روتيليو سقف بيته وصداقته وليس الطعام لأنه أصلًا يعيش بالكاد بما تتركه له دجاجاته العشرة. باتا صديقين إلى درجة أن العجوز كان الشخص الوحيد الذي يدرك الأسباب التي تجعل لوما غراندي تروق «الغجري».

3

ما أصاب رانولفو كيرارتي، «لا أميستاد»، بالشلل التام، ليست الجعة، وإنما الأكاذيب. لقد ألف حكاية «الغجري» وأديلا ليهيمن على النقاش

وليجذب انتباه الجميع، كي يتمكن في النهاية من قولبة النميمة على ذوقه. انغمس بفعل أكاذيبه في ثمل لا مناص منه؛ ثمل من الافتراءات التي لم يعد بإمكانه أن يفلت منها. كانت أكاذيبه مُسكِرة إلى درجه أنه صدقها بنفسه. لم يعد ذلك الأمر الآخر -الحقيقة- مهمًا، فقصته فقط هي الشيء الوحيد الذي يصلح الآن.

ما من أحد غيره يعرف أنه لم يضئ بمصباحه المروج القريبة من النهر، وإنما الجانب الآخر، عند شجيرات الأويساتشيرا التي تحيط بسفح «إل برنال». ما من أحد غيره يعرف أن الجذع شبه العاري والنهدين الطليقين والوجه المفزوع الذي أضاءه وسط الليل كلها كانت لغابرييلا باوتيستا، وليس للفتاة التي شقوا قلبها. ما من أحد غيره يعرف أن من رآهما تحت ومضات الضوء زانيان وليس قاتلًا في شد وجذب مع ضحيته. ما من أحد غيره، وما من أحد سواه.

أدرك رانولفو أن الخدعة التي ابتكرها ستزداد شراسة وخطورة وأنه لا سبيل لترويضها. لقد أسكر بقية رجال القرية بأكاذيبه: بات «الغجري» في أعينهم مذنبًا. هذه هي الحقيقة الجديدة وعلى رانولفو أن يصدقها إلى الأبد.

4

شعر بعقرب يسير فوق ضلوعه، فضرب صدره بيده بقوة، ليكتشف أن ما أيقظه حقًا مجرد قطرة عرق تنزلق فوق جسده. فتح عينيه عدة مرات وهو يحاول نفض ثقل النوم. تأخر بضع ثوان في ظل تِيهه ليعرف مكانه، حتى ذكّره صوت تدفق الماء فوق الصخور. لف «الغجري» وجهه ونظر إلى الشمس المنعكسة فوق بركة العرق التي أغرقت بطنه. نهض بصورة خرقاء،

مستندًا بأقل صورة ممكنة إلى ساقه اليسرى الناعسة. هب نسيم بارد من السد، فالتفت «الغجري» ليجفف العرق السائل على مؤخرة رقبته. رفع نظره نحو السماء وخلص إلى أن الوقت تعدى منتصف الظهيرة. لقد نام خمس ساعات على الأقل. جفت شفتاه من التعرض كل هذا الوقت إلى الشمس. رطبهما بلعابه، وفرك جفونه المشتعلة هي الأخرى بذات الشيء. دلك فخذه في محاولة للقضاء على خدر ساقه المتيبسة. دلك نفسه لفترة طويلة. حاول تذكر أي شيء مما حلمه، إلا أن شيئًا لم يأت إلى عقله. مع ذلك، استمرت قبلات غابرييلا باوتيستا بالانتعاش ذاته فوق لسانه، فافترض أنه حلم بها.

خلع «الغجري» سرواله، وركض نحو ضفة السد، وغطس واثبًا في الماء الذي رغم كونه فاترًا خفف من وطأة الحر الذي بدأ يخنقه. طفا فوق ظهره وهو يتأمل طيور الغماس[1] التي حلقت فوق صفحة الماء.

ظل يلهو في السد إلى أن شعر بالجوع، فخرج من الماء وتوقف فوق حجر لينشف نفسه أسفل أشعة الشمس. سمع من بعيد حركة الجرارات وهي تُبور الأرض. طابت له الضوضاء. ذكرته بهدير القاطرات وهي تسحب السفن في رصيف الميناء. ارتدى ملابسه وسار حتى الشاحنة. فتح باب السائق، وشغل الراديو وسعى لضبط إحدى المحطات. قلب المؤشر وعثر على إحدى إذاعات تامبيكو التي اعتاد أن يسمعها في طفولته. رفع الصوت وتوجه إلى الجزء الخلفي من الشاحنة. بحث داخل صندوق وأخرج تونة وبازلاء معلبة وعبوات مايونيز وفلفل الـ«تشيبوتلي» وكيس خبز يحمل علامة «بيمبو» التجارية. أعد لنفسه شطيرة بأربع قطع خبز التهمها سريعًا. نزع غطاء زجاجة شراب «سكويز» بطعم الليمون الفردوسي، وذهب ليجلس فوق

(1) يعرف أيضًا بـ«الغواص» و«السمّاك» وهو جنس من الطيور يتبع الفصيلة الغواصية. (المترجم).

غطاء محرك الشاحنة ليتناولها. بث الراديو برنامج «ساعة المجروحين»، ففكر في أن الرجال الحقيقيين لا تهجرهم النساء أبدًا، وأن «المجروحين» ليسوا سوى صنف من الحمقى العاجزين عن فك شفرات الرغبات النسائية. لم يتوقف المذيع، الذي حظي برأي معارض تمامًا، عن الثناء على «سلالة الرجال النبلاء والأسخياء الذين يسمحون لنسائهم بالمضي قدمًا في طرقهن الخاصة، رغم معاناتهم».

وبينما يخطب المذيع بإسهاب عن «الألم اللذيذ للحب الضائع»، تذكر «الغجري» الليلة السابقة: كل ليلة مع غابرييلا أحدٌّ من سابقتها، ومع كل ليلة حادة تشعر غابرييلا بالذنب وتطلب منه أن يتركها في سلام، فيرحل عن لوما غراندي وتبقى غابرييلا باوتيستا في سلام. تظل عالقة في هذا السلام، وهي تختنق داخله وتنتظر بنهم الليلة التي سيعود فيها «الغجري» ليخطف منها سلامها.

قال المذيع بصوته العذب: «إنها الثانية وخمسون دقيقة ظهرًا، وسنسمع الآن أغنية «أنا لن أقترب من هذه الشجرة» لفريق «أوراكونيس ديل برابو»».

نزل «الغجري» من فوق غطاء محرك السيارة واثبًا، ثم ارتشف آخر ما في شرابه المرطب وأمسك بالمقود. الوقت تأخر كثيرًا عما ظنه. عليه أن يقود حتى سان فرناندو ليتسلم بضاعة مُهربة من أجهزة التسجيل المحمولة. لو لم يسرع، فسيصل مع حلول الليل ولن يجد المُهرب الذي سيوفر له الطرد، وسيشق عليه إعادة إرساء الاتصال معه.

أغلق الراديو وشغل المحرك. كان قد بدأ في لف المقود نحو اليمين، حين توقف فجأة. ظل يفكر بضع لحظات. لم يختف أثر قبلات غابرييلا بعد من فمه. لم تفتنه امرأة من قبل بمثل هذه الصورة، إذ ظل يحلم بها يوميًا، ويفكر فيها وفي جسده الذي يطالبه بها تحديدًا بصورة مستمرة.

أدار المقود على مهل في اتجاه اليسار ليتوجه نحو الطريق المستقيم المؤدي إلى الشارع الرئيسي في لوما غراندي. ضغط على دواسة الوقود وثمة فكرة واحدة تسيطر على رأسه: سرقة غابرييلا باوتيستا والفرار معها إلى تامبيكو. انطلق بشاحنته بحسم. كان قد قطع كيلومترًا، حينما ضغط المكابح فجأة. تأمل الأفق بثبات، تنفس بعمق، تراجع، ولف الشاحنة ليمضي في الاتجاه المعاكس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

5

انبثق بدرو سالغادو من الباب ودخل البيت. نظرت غابرييلا باوتيستا إليه مذهولة، وفزعها عالق في محجرَي عينيها. بدرو رجلٌ توحُّشه بطيء وهي على دراية بهذه المسألة. لو أنه سيقتلها، فسيفعلها من دون جلبة، كتلك المرة التي شق فيها حلق فتى من قرية أخرى بضربة وحيدة وفريدة من منجل، لمجرد أنه أصر على النظر إليها بصورة شهوانية. لم يمت بفضل الأداء الإعجازي لطبيب أحد المزارع الذي قطب جرحه بعقافة صنارة نتيجة لنقص المستلزمات الجراحية. لا. بدرو سالغادو رجل لا يؤنبه قلبه. أثبت الأمر في تلك المرة وفي مرات كثيرة أخرى. رغم كل شيء، اعتبرته غابرييلا زوجًا جيدًا؛ فهو ودود، ومجتهد، ومسؤول، ولا يسكر إلا في عطلات الأسبوع. لم يرفع يده عليها قط، ومع ذلك اعتاد أن يُهددها بتقطيعها إربًا مع أول خيانة منها له. إنه تهديد تعلم غابرييلا أنه سينفذه، وكما يجب.

راقب بدرو زوجته تقرفص وراء الفراش وسألها بحدة: «ما الذي تفعلينه هنا؟»، وهي العبارة التي فسرتها غابرييلا كمقدمة لضرب مبرح.

أجابته بصعوبة:

- أبحث عن بعض الجوارب.

- وهل عثرتِ عليها؟

اكتفت غابرييلا بالرد بكلمة «لا» بصوت خافت.

سار بدرو نحو المائدة وجلس إلى أريكة خشبية:

- قدمي لي فنجانًا من القهوة وبعض البيض، فأنا جائع.

نظرت غابرييلا بخوف إلى بدرو. نهضت، ثم صبت القهوة في فنجان وقدمتها له. حلّاه بدرو بأربع ملاعق من السكر وبدأ يشرب ببطء، قبل أن يسألها دون أي انفعال:

- أين كنتِ طوال اليوم؟

انسكبت زجاجة الزيت من بين يديها والتفتت نحو بدرو. بحثت في عينيه عن أثر لغضب مكتوم، لكن كل ما عثرت عليه هو انتفاخ ثمل مستمر منذ يومين. انتظر بدرو إجابتها، بحاجبين مرفوعين وفم مفتوح.

قالت غابرييلا برباطة جأش مصدرها العدم:

- لم أخرج من البيت منذ الليلة الماضية.

تفقد بدرو زوجته بنظرة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ثم سألها بنبرة غير مصدقة:

- إذن.. أنتِ لا تعرفين؟

دوى صدى الخوف داخل غابرييلا. لم تعرف إن كان بدرو يسعى لحثها على الكذب، أم أنه فعلًا يستفسر منها ببراءة. لقد أرعبها هذا الشك.

سألته بصوت متهدج:

- ما الذي لا أعرفه؟

لو أنه فائق، لأدرك بدرو على الفور توتر زوجته، لكن نعاس ثمله الوادع سمح له فقط أن يقول:

- أن خليلة ابن عمي رامون قد قُتلت.

شعرت غابرييلا بخوفها يتبدد رويدًا رويدًا ليسمح لها بصياغة كلماتها، دون أن يرتعش صوتها:

- رامون من؟ رامون من المتجر؟

أومأ بدرو برأسه. التفتت غابرييلا وهي تتنفس الصعداء وبدأت في إعداد البيض، ولأن بدرو منهك، ظل جسده ينزلق على المائدة، إلى درجة بدا معها أنه يرقد فوقها. انتهت غابرييلا من قلي البيض، ووضعته في طبق، وقدمته أمام زوجها. تشممه بدرو ثم فرك وجهه بكفيه كي يستفيق.

طلب منها:

- ناوليني قطعة من خبز الـ«بوليو».

أخذت غابرييلا رغيفًا من الحقيبة وناولته له. فتته بدرو وأخذ قطعة وبدأ يغمس صفار البيض. لاحظت غابرييلا أنه لا يرتدي قميصه، فسألته:

- وقميصك؟

توقف بدرو وقطعة الخبز في منتصف طريقها إلى فمه، ثم أجابها بعد بضع ثوان:

-أعرته إلى ابن عمي. كان في حاجة إلى قميص من أجل العزاء.

سألت غابرييلا، متظاهرة بسلامة النية:

- وما اسم خليلة رامون؟

أجابها بدرو:

- أديلا.

راجعت غابرييلا قائمة الأسماء داخل ذهنها، ثم قالت:

- أديلا؟

أجابها بدرو:

- نعم.. لكن لا أظن أنك تعرفينها. إنها من الجُدد.

- لا. لا أعرفها.

استأنف بدرو مهمته في تغميس العيش في الصفار ليأكله بعدها باستمتاع جليّ.

فحصت غابرييلا كل واحدة من حركاته، بحثًا عن أي كشف لشكوك دفينة، إلا أنها لم تجد أي مؤشرات، فوجهت سؤالها الأخير بهدوء:

- وهل يعرفون من الذي قتلها؟

تجرع بدرو رشفة من قهوته ليجيبها بعدئذٍ بسرعة وكلماته تتلاطم فيما بينها:

- نعم.. إنه «الغجري».

هكذا، ظلت غابرييلا باوتيستا صامتة وعادت لتتعرق من الداخل.

الفصل التاسع: ليلة الآخرين

1

عجزت أستريد مونخي طوال الليل عن كبح دموع عينيها، وعن محو الطيف العنيد لجثة أديلا من نظرتها. لم ترغب في تناول العشاء لأن رائحة الجلد الزنخ التي انبعثت من أديلا ظلت باقية داخلها. ودت أمها -حين رأتها مقهورة النفس بمثل هذه الصورة- أن تُخفف من غمها بوضع كمادات الداتورا اللا شوكية فوق صدغيها. لكنها فشلت، لأن إحساس الموت اللاذع توطد في ابنتها. تلاشت أديلا في ظرف لحظة، ولولا أن أستريد شعرت بها تتجمد بين يديها وهي تُلبسها، لما صدقت الأمر. لقد خلَّف موت أديلا خواء في حياتها، فعلى الرغم من أن فترة قصيرة مرت على تعارفهما، إلا أن صداقة قائمة على التواطؤ ترسخت بينهما، إذ اعتادتا على التحدث عن أمور لم تتخيلا أن النساء يمكنهن أن يتحدثن عنها. كانت أستريد هي من بادرت بجولة كشف الأسرار، وتحدثت عما اعتبرته أكثر أمورها حميمية: أحلامها المتمردة ورغباتها المفاجئة، لكن سريعًا ما تخطت قصص أديلا الشرِهة أسرارها التافهة المراهقة. كانت الغريبة الصموتة قد تمكنت عبر سلوكياتها الرزينة من إخفاء الدم الحامي الذي يجري في عروقها، لكن رويدًا رويدًا أخذت تكشف لأستريد عن الرغبات الغرامية التي تأكلها. مع ذلك، لم تكشف لها قط اسم الرجل الذي ترك لها بضع علامات فوق جسدها؛ تلك العلامات التي سمّتها «علامات الشغف»: خدوش وعضات ودوائر بنفسجية أسفل

حلمتيها بالضبط، وبين ثنايا بطنها، وبين فخذيها، وعند مؤخرة رقبتها التي يخفيها شعرها. تأملت أستريد كل هذه العلامات مندهشة حين أظهرتها لها أديلا بخيلاء أنثى راضية.

لطالما كررت أديلا في كل لحظة من دون أن تكشف شيئًا عن هوية عشيقها: «أنا مغرمة. أنا مغرمة إلى حد الهزال»، واستغرق الأمر بعض الوقت من أستريد لتفهم أن أديلا على علاقة برجل متزوج، وأنها تلتحف بجسده يوميًا، قبل الشروق، وسط دغل الأجمات التي تنمو قرب ضفة النهر.

افترض والدا أديلا أنها في علاقة. الأمر واضح. لا فقط بسبب تغيرات حالتها المزاجية وسعادتها الفائقة، وإنما أيضًا لأن أمها قرأت مرات ليست بالقليلة تلك الخطابات التي كتبتها أديلا لعشيقها الغامض وأخفتها ببراءة أسفل حاشية الفراش الذي تنام عليه. لم يشتبه والداها قط في أنها تفتتح أصباحها برعشات النشوة اللذيذة، لأنهما كاثوليكيان تقيان واعتادا تحذير أبنائهما من أخطار الخطايا والأعمال السيئة. لم تُشر الخطابات إلى وجود مثل هذه الاحتمالية، لأنها قد حُررت بطريقة مُربكة، وبدت كأنها تشير إلى علاقة مع حبيب مستقيم تفضل ابنتهما الإبقاء على هويته لنفسها.

ذات ليلة قررا سؤالها لتوضيح أسباب تكتمها. أجابت أديلا على أسئلتهما بهدوء، وقالت إن هذا الحبيب من فتية القرية، وفي عمرها، وإنه يحترمها بشكل مطلق، وإن نواياه جادة وإنها ستقدمه إليهما في الأحد ذاته الذي قُتلت فيه.

فكرت أديلا في أن تطلب من شقيق أستريد أن يلعب بضعة أيام دور حبيبها، لإنقاذ نفسها من الأزمة التي أقحمت نفسها فيها، إلا أنها لم تتجرأ إما لتحليها بالحكمة أو شعورها بالأسى أو بعض الخجل.

صدق الوالدان القصة العذرية التي ابتكرتها أديلا من أولها إلى آخرها. لم يتشارك أحد مع أديلا أسرار قصتها الغرامية الجامحة سوى أستريد التي لم يعرف أيضًا أحد سواها أن أديلا تفكر في الرحيل مع عشيقها المجهول نحو أماكن لا اسم لها وتقع في سلسلة تاماوليباس الجبلية. لم تصر على التحقق من اسمه، لأن أديلا قضت على رغبتها عبر رفضها الدائم للكشف عنه. لم تستعدْ فضولها إلا في اللحظة التي عرفت فيها أنها قُتلت، ودارت في رأسها مجموعة من الهويات المحتملة. مع ذلك، ظلت تستبعد كل واحد من الرجال الذين فكرت فيهم، لأنهم لم يتماشوا مع وصف أديلا لرجلها، وهذا لأن أديلا لم تُقدمه بصفات بدائية مثل: طويل أو أشقر أو وسيم أو أسمر أو نحيف أو سمين، وإنما بصفات أكثر حسمًا: مقدام ووغد وحنون، وهي ثلاث صفات يصعب أن تتوافر في أي شخص.

افترضت أستريد أن رامون كاستانيوس هو الشخص الذي قبل في النهاية أن يصبح حجة غياب أديلا، فلديه كل ما يؤهله لحبك الخدعة لأنه يمثل شخصية الحبيب الخجول الذي أشارت إليه. لقد صدق أبواها الحجة الزائفة على ما يبدو ولهذا تساهلا ومضيا معه من هنا إلى هناك كأنه من أقرب المفجوعين.

توقفت أستريد عن التفكير في الهويات حين وصل أخوها فجرًا. جاء من المتجر وجلب معه إلى البيت النبأ الذي لا يُمكن تأخيره: لقد قتل «الغجري» أديلا. ارتبكت أستريد للحظة؛ فهي لم تتصور «الغجري» عشيقًا مُحتملًا لصديقتها، وبالتبعية قاتلًا لها. «الغجري» ليس متزوجًا ولا يعيش في لوما غراندي. لطالما تباهت أديلا أمامها بأن رجلها يمارس معها الغرام يوميًا. مع ذلك، كان هو من دون شك الرجل الوحيد في القرية الذي ينسجم مع الصورة العابرة التي رسمتها أديلا.

2

حاولت أرملة كاستانيوس التحرك بأقل صورة ممكنة لتفادي أن يلاحظ الموجودون في الخارج طقطقة الكرسي الهزاز الذي ألصقته في الجدار كي تنصت إلى المحادثة. في ليلة ذلك الأحد، كررت أغلب العبارات مسألة أن «الغجري» مذنب، إلى أن بزغت عبارة واحدة فقط ضمن تلك العبارات الكثيرة التي قِيلت وسط حُمى الجعة: «عليك أن تثأر لها.. اقتله». هذا هو ما حكم به أحد الأصوات الكئيبة؛ صوت توركواتو غاردونيو. استنتجت الأرملة أن العبارة موجهة لابنها وقربت أذنها من الثقب الذي تتنصت منه. سمعت أولًا صمت رامون ومن بعده عاصفة من الضحكات. لم تخمن ما يحدث في البداية، لكنها خلصت إلى أن توركواتو يمزح وأن البقية تسخر من شحوب وجه رامون. هكذا كانت الحال فعلًا. بدا مستحيلًا أن يتحلى رامون بالشجاعة الكافية للاشتباك مع «الغجري». عرف رامون هذا الأمر وبقيتهم أيضًا، لأن قليلين على أرض الواقع من يملكون جرأة الإقدام على هذه المسألة. لقد صقل «الغجري»، بقوة ندباته الثمانية القاتلة -الخمسة الناجمة عن السواطير والثلاثة الناجمة عن طلقات- أسطورةً مفادها أنه منيع. اعتادوا أن يقولوا: «جلده مزدوج، ولهذا يتحمل كثيرًا». أيضًا، ثمة شائعات غير مؤكدة وبعيدة تَنسب إليه موت أربعة رجال، وفوق كل هذا، لوما غراندي في النهاية قرية قانون ومر وقت طويل على آخر مرة أقدم فيها أحد على تطبيق العدالة بيده. حسم خوستينو تِييث الأمر:

- كارميلو لوثانو سيتولى مسؤولية هذا الوغد.

سمعت أرملة كاستانيوس الموافقة الصماء من قبل بقيتهم وابتهجت. لم تود أن ترى ابنها مُقحمًا في قضية خسارته فيها معروفة سلفًا. بينما تُبعد أذنها عن نقطة التنصت، وهي راضية بقرار خوستينو، جاء صوت مارثيلينو

ويترون الحاد وجعلها تلصق أذنها بالجدار مجددًا.

قال مدمدمًا لرامون:

- لا تكن جبانًا. اقتل ابن الساقطة هذا، لأن كارميلو لوثانو لن يلمس شعرة واحدة منه.

لم يعد ثمة ضحكات أو مزاح، فمارثيلينو كان له ابن تعرض لحادث دهس أفرج كارميلو عن مُرتكبه بعد تلقيه رشوة قيمتها نصف مليون بيزو. لم يُبقه في السجن إلا نصف يوم تقريبًا.

شدد مارثيلينو:

- كارميلو وهذا الوغد شريكان.

إنها مسألة حقيقية؛ إذ اعتاد «الغجري» أن يدفع للقائد مبلغًا شهريًا كي يسمح له بإدخال البضائع المهربة في المنطقة الجنوبية من تاماوليباس.

وأصر مجددًا:

- لن يفعل له شيئًا. لوثانو لن يلوي رقبة دجاج حظيرته.

ود خوستينو تِييث أن يتدخل، وهذا لأنه لطالما صارع من أجل تجنب حل الجرائم عبر العنف. لقد حضر المذبحة التي حدثت بين آل خيمينيث وآل دوارتي ويعرف أن العداوات لا تخمد مع الثأر، بل إنها في تلك المرة أفنت كلتا العائلتين من دون تفرقة.

حين حاول تِييث أن يتحدث، أسكته مارثيلينو، إذ قال وهو يقف أمامه وجهًا لوجه:

- لا تبدأ في النحيب يا خوستينو، ثمة أمور يجب أن تُحسم بطريقة رجولية.

استدار وحدق في رامون وقال له من دون أن يتلعثم:

- وإذ لم تكن رجلًا بالصورة الكافية لقتله، فسأقتله أنا.

تدخل خوستينو تِييث:

- لا تتسرع يا لينو، فهذا الشأن لا يعنيك، وإذا كانت هذه المسألة شأنًا بين رجلين، فلتترك رامون يتولى أموره بنفسه.

أومأ مارثيلينو برأسه بتثاقل وقال:

- حسنًا. سأخرس. أود فقط أن أوجه سؤالًا أخيرًا.

التفت البقية لينظروا إليه بترقب. حدق مارثيلينو بعينيه مجددًا في وجه رامون، ثم سأله فجأة:

- إذن، ما الشيء الملعون الذي ستفعله؟

ساد صمت عميق وودت الأرملة أن تصرخ من عند مقعدها الهزاز بعبارة: «اتركوا ابني في سلام»، إلا أنها تمكنت بصعوبة من التمتمة بعبارة: «احمني يا رب».

تقلصت معدة رامون من السؤال. لم يجد مهربًا. ثمة إجابة واحدة لهذا السؤال. ابتلع لعابه. إما أن يصبح رجلًا إلى الأبد أو أنه لن يصبح رجلًا على الإطلاق.

أجاب وهو يختلج من حرقة في حلقه:

- سأقتله. بمجرد أن أراه، سأقتله.

رفع مارثيلينو زجاجة الجعة الموجودة في يده وتمتم:

- في صحتك.

ربت خوستينو تِييث فوق كتف رامون وقال له:

- حسنًا.

لقد انتصر الدم ولن يفعل شيئًا لمنع إراقته: على رامون أن يتولى أموره بنفسه.

3

مر جرذ راكضًا فوق الطاولة. أخذ قطعة «تورتيًا» موضوعة فوق إناء قذر، وفر لينزل مسرعًا من فوق ساق مقعد. راقبه ناتاليو فِيغيروا حتى رآه وهو يتسلل عبر صدع أسفل خزانة الملابس. حدث هذا الأمر نحو الثالثة فجرًا وهو ينتظر إعلانًا محتملًا يكشف هوية قاتل ابنته.

لطالما أكدت له أمه وهو طفل أن الأنباء السيئة تأتي ليلًا، لكن ناتاليو يزدري الآن هذا التأكيد، لأن كل الأنباء السيئة جاءته في وضح النهار؛ فذات أحد في شهر يونيو تلقى في الحادية عشرة صباحًا إخطارًا يقول إن ابنه إراسمو يلفظ أنفاسه الأخيرة في شارع موحل وإن جسده يفترش أرضه بعد أن ثقبت جمجمته رصاصة طائشة أطلقها سكير غير واع وهو يحتفل بانتهاء ليلة عربدة بفتح النار عشوائيًا؛ وذات سبت من شهر أبريل وصل إلى باب بيته في الثامنة صباحًا نبأ مفاده أن ابنه ماركوس سقط فوق كومة من الحجارة بعد أن ألقاه حصان مجنون من فوقه، فتفتت سلسلة العظام الهشة التي تصل رقبته برأسه؛ وبالأمس أبلغته إيبيليا هو وزوجته أن جثة ابنتهما قد عُثر عليها ملقاة كخرقة عند حافة أحد حقول السورغم. هكذا، بات متيقنًا من أن الأخبار المشؤومة لها طبيعة نهارية.

أخذ رشفة من القهوة الباردة خفيفة القوام وزوجته نائمة إلى جواره وهي تتلعثم في كوابيسها. راقبها ناتاليو وهو رابط الجأش. لم يعد يمتلك القوة الكافية لا لمواساتها ولا حتى لمواصلة العيش، لكن ما أراحه فقط احتمال معرفة أوصاف القاتل كي يذهب ويحفر أخدودًا في صدره بسكين.

لاحظ ناتاليو دقدقة خفيفة ومستمرة داخل الغرفة. تفقد الطاولة وعثر على عثة صغيرة تتواثب بعناد، وهي تهز جناحيها بغضب، فوق غطاء حلة من القصدير. أمسكها ناتاليو بين أصابعه، ونزع جناحيها، وألقاها فوق الأرض. تقدمت العثة بضعة سنتيمترات على الأرض المستوية وتاهت بين الظلال.

بزفرة من فمه، نفض ناتاليو المسحوق الذي خلَّفه جناحَا الحشرة فوق يديه. حين نبحت كلاب الجار، نهض ناتاليو وأطل برأسه من النافذة. لم يتمكن عبر الظلام من تمييز هوية من يأتي، لكنه افترض أن القادمين سيأتون له بالأوصاف الدقيقة للقاتل.

وقف وراء الباب منتظرًا أن ينادوه، ثم أيقظ متوترًا زوجته كلوتيلدي بصافرة، فنهضت المرأة مفزوعة، وسألته بنظرتها التي ظلت غبشاء بسبب النوم:

- ما الذي حدث؟

أشار ناتاليو إلى الباب، فارتدت المرأة شبشبها من دون أن تفهم وسارت نحو زوجها.

قال صوت يأتي من الجانب الآخر:

- مساء الخير.

فتح ناتاليو الباب فوجد أمامه غريبين لا يتذكر أنه رآهما في الدفن.

تفحصهما قبل أن يرد تحيتهما وقال باقتضاب:

- مساء النور.

رفع أحد الرجلين حقيبة بلاستيكية وقدمها له:

- جلبنا لكما هذه الوجبة الخفيفة للعشاء.

فقد ناتاليو تركيزه إزاء ودية زائريه غير المتوقعة. أخذ الحقيبة وشكرهما هامسًا، ولأنه والرجلين وقفوا في صمت، دعتهما كلوتيلدي من داخل البيت إلى أن يدخلا وسألتهما:

- ألا تودان أن تشربا فنجانًا من القهوة؟

دخل الرجلان وجلسا إلى الطاولة. فتحت كلوتيلدي الملفوف وأفرغت محتوياته فوق أحد الأطباق، وهي ست من شطائر الـ«تاكو» المحشوة بالبيض والبطاطس والبصل. رغم أن ناتاليو لم يشعر بالجوع، إلا أنه ضغط على نفسه ليأكل شطيرة لكيلا يبدو فظًا. أكل الغريبان بقية الشطائر، متحججين بضرورة ملء معدتيهما لمواجهة آثار الجعة التي شرباها مؤخرًا.

لم يُشر أي من الغريبين إلى أي شيء بخصوص الجريمة، إذ انشغل كل منهما بسؤال الآخر عن عدد الخراف التي قتلتها حيوانات القيوط، وعن تواريخ حفلات الرقص المقبلة المقرر أن تحتضنها بلدة تشيكو، وعن انتخابات اختيار مفوض الأرض المشاع الجديد، وعن مستوى مياه السد في فترات الجفاف. بدا الأمر كأنهما ذهبا إلى منزل ناتاليو فقط لاستئناف محادثة سابقة.

سمعهما كلوتيلدي وناتاليو بصبر لمدة ساعة ونصف الساعة حتى قرر أحد الغريبين أن ساعة الرحيل قد حانت. نهض ناتاليو ليودعهما بيأس لأنهما لم يكشفا أثناء محادثتهما حتى ولو أصغر تفصيل صغير ممكن عن هوية القاتل.

قال لهما:

- ليلة سعيدة.

فأجابه الألطف بين الرجلين الغريبين:

- ليلة سعيدة.

وظل ينظر إليه، فسأله ناتاليو بقلق:

- ما الأمر؟

تمهل الرجل عدة لحظات قبل أن يُجيبه:

- لا شيء. الأمر فقط أننا وددنا أن نقول لك إننا نعرف من قتل ابنتكما.

هزت رجفة باردة ناتاليو وهو يسأله محاولًا السيطرة على اضطرابه:

- من؟

- يقول أحد ما إنه «الغجري»..

ولأن الرجل رأى أن ناتاليو لم يبد أي إشارات على تعرفه عليه، أضاف:

- من يقود شاحنة «دودج» سوداء.

تزعزع صدغا ناتاليو بفعل الغضب. لم يعرف هوية من تحدثا عنه، لكنه كان مستعدًا للبحث عنه. عليهما فقط أن يخبراه الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه.

- أين يعيش؟

زم الرجل شفتيه:

- العثور عليه في هذه الأنحاء أمر غير ممكن.. إنه ليس من هنا.

أضاف الرجل الآخر:

- هذا «الغجري» وغد داعر.. عليه حسابات كثيرة لم تُصف بعد في عدة مزارع.

أكد له ناتاليو:

- سأصفي حسابي معه بنفسي، لأنني سأقتل ابن العاهرة هذا.

هز الرجل رأسه نافيًا، فسأله ناتاليو بتحفز:

- لا؟

قال الرجل:

- أحد ما سبقك، فمنذ برهة تعهد رامون كاستانيوس بقتله.

أجابه:

- إنه ليس واجبه.

هز الرجل رأسه مجددًا:

- أقسم الفتى فعلًا أنه سيستاء لو لم ينفذ الأمر.. كما أنه واجبه أصلًا، لأنه كان يفكر في الزواج من ابنتك.

هدَّأت الإجابة الرجل العجوز: بما أن رامون تعهد بالثأر لابنته، فعليه أن يحترم مسعاه.

أضاف الرجل:

- رحل «الغجري»، لكن رامون تعهد بالنيل منه.

قال ناتاليو:

- سأبحث عنه لاحقًا لأشكره.

4

فزعت غابرييلا باوتيستا حين احتضنها «الغجري» أول مرة؛ ومرد الأمر ليس فعلته، وإنما ما شعرت به. أخذها الرجل على حين غيرة وأمسكها من خصرها أثناء عودتها من تقديم العشب لعنيزات الحظيرة الواقعة في الأرض البائرة وراء بيتها. حاولت أن تفلت منه، لأن زوجها بدرو أوشك على الوصول في الشاحنة ذات الصندوق العالي التي تنقل جامعي القطن في طريق عودتهم من مزارع «إل سالادو». شل «الغجري» حركاتها، بكلماته أكثر من قوته.

قال لها:

- لو أنها رغبتك، فسأفلتك.

توقفت عن الشد والجذب. كانت نظراتهما قد التقت عددًا كافيًا من المرات كي يفهم كلاهما أن هذا العناق ليس عرضيًا. مع ذلك، فإن مكانه وساعته جعلاه مناورة خطيرة في غير أوانها. لم ترغب غابرييلا في أن تنفصل عن هذا الرجل الذي يعصرها، لكنها لم تنوِ أيضًا أن تتسبب في كارثة. لم تجد حلًا أفضل لتهدئته -من دون رفضه- سوى أن تُرخي جسدها وتتيه بنظرتها في اللا نهائية.

عجز «الغجري» عن تفسير ارتخاء المرأة التي انزلقت من بين ذراعيه، فجاء رد فعله بضمها إليه بقوة أكبر، فظلت كما هي، من دون أن تبدي مقاومة. حينئذٍ، أفلتها بخيبة أمل من دون أن يخمن أن غابرييلا أسفل غطاء

برودتها تحجب رغبة تخنقها.

تمتم «الغجري» وهو في حالة بين الضيق والخجل:

- من الأفضل أن أمضي في طريقي.

قالت له غابرييلا، من دون أن تغير تعبيرات وجهها على الإطلاق:

- لا تفلتني.

التفت «الغجري» ناحيتها مبهورًا وقبلها من شفتيها، فرفعت غابرييلا يديها تلقائيًا وقبضت على جذعه، ومن تحت نسيج قميصه المشبع بالعرق تحسست سلسلة الندبات التي تموجت فوق ظهره، فاستثارت أعماقها. بدا لها ظهره الصخري مهيبًا ويشع ذكورة. توتر جسدها قبل أن تلعق فم «الغجري» المر وتُبعده عنها.

أمرته:

- ارحل.

محمومًا، حاول «الغجري» أن يضمها إليه مجددًا، إلا أن غابرييلا منعته بساعديها بحزم.

كررت ما قالته سابقًا:

- ارحل.. بدرو لن يتأخر. سنلتقي لاحقًا.

غادر راضيًا. غابرييلا لن تفلت منه، أما هي فظلت في مكانها وسط الأرض البائرة بلا حراك، وهي تتحمل الحرارة التي تنبعث من بين ساقيها.

في تلك الليلة، لم تتوقف عن التفكير في الظهر الذي تقطعه الندوب، وهو نفس ما حدث بعدئذٍ بعامين، في الليلة التي كشف لها بدرو فيها أن

«الغجري» هو قاتل أديلا فيغيروا. الفارق أنها الآن تخيلته بصورة مختلفة: لا ذلك الظهر الذي رفرف مرات كثيرة فوقها من فرط المتعة، وإنما ظهر رجل سيطاردونه إلى أن يتمكنوا من تصفيته. هذا هو كابوسها: أن يذبحوه من ظهره، لأنه لا يُمكن قتله إلا من ظهره. ما من أحد يقدر على مواجهته وجهًا لوجه.

إن ارتكاب «الغجري» للجريمة التي يتهمونه بها أمر مستحيل، وهي الوحيدة التي تعرف هذا الأمر تمام المعرفة. إنها أيضًا الوحيدة القادرة على إثبات براءته. لكن الاعتراف بالحقيقة سيعني أن تفضح نفسها، وأن تصبح حياتها مقابل حياته. تملَّك الخوف منها وفكرت في أنه لا يوجد شيء قادر على إنقاذه، على الإطلاق. التحفت بالأغطية وبكت. تذكرت ظهره مجددًا، وساعاتهما معًا ورغبتها القوية في أن تصبح معه. لم تفكر قط في أن سرها سيضنيها بهذه الصورة. في النهاية، أغلقت عينيها وحاولت أن تنام وسط لزوجة الليل.

5

تلوَّى خوستينو تِييث فوق فراشه وفتح عينيه مجددًا. شعر بأن رأسه يلف ويدور؛ لا بسبب زجاجات جعة «بيكتوريا» الكثيرة التي شربها أو ساعات أرقه في هذه الليلة الغارقة وسط البعوض، وإنما بسبب فكرة غير محددة ترسخت في وعيه ومنعته من النوم.

ليس لديه سبب يُقلقه. الجريمة حُلت بالفعل، إذ إنه بخلاف ما قاله رانولفو كيرارتي، فقد ظهرت روايات أخرى حول تصرفات «الغجري» تؤكد كونه مذنبًا. لقد تذكر توركواتو غاردونيو أنه رآه يحوم حول بيت أديلا

فجرًا عدة مرات، وأصر ماثيدونيو ماثيدو على أنه وجده يشحذ سكينًا مطابقًا لذلك المسروق من لوثيو إسترادا، وحكى باسكوال أورتيغا عن المغازلات الفاحشة التي لطالما وجهها «الغجري» إلى أديلا وكيف أنها ردت عليها دائمًا بلا مبالاة جلية، في حين قال خوان كارّيرا إنه سمعه يتحدث عن الغيرة الرهيبة التي يشعر بها تجاه امرأة يحبها في القرية لم يأت على ذكر اسمها قط، كما قال بدرو سالغادو إنه لاحظ عليه في وقت سابق مجموعة من السلوكيات الغريبة. لقد أشار كل شيء إلى أن «الغجري» هو القاتل.

اقتربت الساعة من التاسعة صباحًا ولم يتمكن خوستينو، الذي رقد في الخامسة فوق الفراش، من النوم بعد. ثمة شيء لا يتوافق هنا. تفصيل مبهم ليس في مكانه ويستحث أرقه، لكن خوستينو، المضروب بسوط الثمل، لم يتمكن من فك شفرته.

تقلب فترة طويلة بين أغطيته باحثًا عن النوم، لكنه لم ينجح. فكر: «اللعنة! ما الذي يحدث لي». شعر بطعم لاذع في حنجرته ولسانه. أوشك على الانهيار من فرط الإنهاك، إلا أن الفكرة الملعونة التي تحرمه من النوم، لم تتجل بصورة كاملة. لو أن زوجته لا تزال حية، لوصفت له علاجًا لاضطراب نومه، لكنه أرمل وليس لديه في بيته من ينصحه.

نهض منهكًا ووصل متعثرًا إلى قفص خشبي يستخدمه كخزانة. بحث داخله عن شيء يقضي على اضطراب باله. أخرج عبوة من القهوة الفورية، وعلبة من مسحوق الحليب، وبعض «التامال» الملفوف، وقطعة من لحم الأحصنة المجفف، وبعض الطماطم، والفلفل الأخضر، إلى أن عثر في النهاية على ما يحتاجه: حبوب الأبنوس.

وضعها لتغلي في قدر. حين احمر الماء، رفع القدر من فوق الموقد وأضاف إليه ملعقتين من مسحوق الحليب. احتسى المشروب رشفة تلو الأخرى إلى

أن أنهاه، ثم عاد إلى الفراش ورقد. كان للمشروب أثر جيد وبدأ خوستينو ينعس. جاءت الفكرة -التي لم تتضح صورتها بالكامل- إلى عقله بين الفينة والأخرى، كمطرقة تضرب جمجمته، إلا أن هذا الأمر لم يهمه، لأن شعور النعاس بدأ يهيمن عليه.

فجأة، وهو على وشك النوم، ارتسمت صورة بين أحلامه أوضحت له كل شيء: صورة أثر قدم مقاسها شبر وثلاثة أصابع. إنه أثر قدم القاتل. يزيد مقاس قدم «الغجري» عنها بإصبعين على الأقل. أجل. هذا هو ما ظل يلف ويدور في رأسه، وهذا أيضًا آخر ما فكر فيه قبل أن يسقط في نوم عميق.

الفصل العاشر: رسائل غرامية

1

تمكن رامون كاستانيوس أخيرًا وبعد معاناة كبيرة من العثور على الكلمة التي تعبر عن كل الفوضى التي تراكمت داخله منذ اليوم السابق. هكذا تمتم:

- «كِش»

رفع توركواتو غاردونيو وخاثينتو كروث رأسيهما في نفس الوقت وكل منهما تائه في مونولوج ثمله. سأله توركواتو وهو يطيل في نطق حرف الألف:

- ماذا؟

أجابه رامون:

- لا شيء.

نظر الاثنان إليه بعينين زجاجيتين، ثم عادا إلى ثرثرتهما. كرر رامون كلمته كأنه يقولها لنفسه:

- «كِش»

في هذه المرة كانت مجرد همسة خافتة جدًا إلى درجة أنهما لم يتمكنا من سماعه.

لم يعرف في الحقيقة قواعد الشطرنج، ومع ذلك ففي إحدى روايات «كتاب راعي البقر»، صرخ بطل القصة بصوت جهوري في زملائه لما حُوصر

من قبل عشيرة كاملة من «الأباتشي»: «نحن مهددون كملك شطرنج يقال له كِش». لا يتذكر رامون نهاية الحكاية، إلا أن هذه العبارة التي تُلخص موقف الأبطال المتأزم انطبعت داخل ذاكرته إلى الأبد، ومنذ ذلك الحين بات يستخدمها ليصف ورطاته.

فكر جزعًا: «أنا مهدد كملك شطرنج يقال له كِش»، وتخيل نفسه راعيًا للبقر تحوطه مجموعة من «الأباتشي»، لكنه حين رأى ناتاليو فيغيروا قادمًا نحو المحل نحو السابعة صباحًا شعر أنه بات أصلًا مهددًا أكثر من ملك شطرنج يقال له كِش، خاصة وأنه قضى الليل واقفًا من دون أن ينام ليتعامل مع حماقات اثنين من السكارى، ومعنوياته في الحضيض لأنه مُتيم بميتة عليه أن يثأر لها غصبًا عنه.

حاول أن يختبئ وراء الأرفف أملًا في ألا يلمحه العجوز، وأن يمضي في طريقه، لكن مجهوده ذهب هباء، لأن ناتاليو فيغيروا كان يبحث عنه تحديدًا في هذه الساعة.

وصل العجوز إلى باب المحل وتمتم بعبارة: «صباح الخير»، فالتفت توركواتو وخاثينتو لرؤيته، وحين تعرفا عليه نهضا بطريقة خرقاء. رد رامون -الذي أطلت من عينيه المتورمتين آثار الأرق- تحيته بانحناءة خفيفة برأسه. ترك ناتاليو فيغيروا جسده يسقط فوق أحد المقاعد، ويداه في جيبَي بنطلونه، وبدأ يتفقد محتوى الأرفف، كأنه متردد بخصوص الغرض الذي يود أن يشتريه.

لم يود رامون أن يتبادل معه الكلام، ولا مع أي شخص آخر، إذ اشتاق إلى الذهاب إلى فراشه والنوم ثلاثة أيام متصلة.

سأله ناتاليو وهو ينوي أخذه إلى منزله لتناول الإفطار والتحدث معه على

انفراد:

- هل تناولت إفطارك؟

أجابه مؤكدًا:

- أجل.

وجه توركواتو غاردونيو نظرة ذات دلالة له، ثم سأله وهو يجر كلماته:

- متى وأنت هنا منذ الليلة الماضية؟

أشار رامون بيده إلى رف عليه بعض أكياس المقليات، وكذب رغم أن معدته كانت تتلوى في الواقع من الجوع:

- تناولت هذه التسالي ولم أشعر بعدئذٍ بالجوع.

لم يتناول إلا قطعتين من كعك «ماريانيلا» وبعض رقائق الذرة من ماركة «تشورّمايس»، لكنه ود أن يتملص سريعًا من ناتاليو والسكيرين. لم يرغب في التحدث أو الوقوف أو التفكير مجددًا في مسألة أديلا. كان منزعجًا من كل هذا اللف والدوران.

تفهم ناتاليو أن الفتى منهك ومتعب، لكنه شعر بحاجة مُلحة لمقابلته، فأضاف وهو متيقن من أن رامون لن يرفض عرضه المباشر:

- أعدت زوجتي «التامال» بسمك المنوة وقالت لي أن أدعوك.

دار رامون حول النضد وطلب من توركواتو وخاثينتو أن يُخليا مقعديهما، ثم وضعهما في غرفة المتجر الخلفية إلى جوار الطاولات، وأغلق الباب وأمَّنه بربط حبل بين حلقتيه. هتف مناديًا أمه: «لن أتأخر»، ثم ودع الثنائي الساهر بعبارة: «أراكما لاحقًا»، وقال للعجوز: «أنا مستعد. هيا بنا».

2

بدأ رامون يتوعك وهو في طريقه إلى بيت آل فيغيروا، ليس فقط لأنه سيعود إلى الغرفة المتشبعة برائحة الميتة، وإنما لأنه شعر مع كل خطوة وهو إلى جوار ناتاليو بأن أديلا موجودة إلى جانبه بشحمها ولحمها؛ فكلاهما -الابنة ووالدها- لديه نفس النظرة، وإيماءات متشابهة، بل إن لهما مشية واحدة. بخلاف هذا، صرصرت الصرانيخ وأحرقته الشمس كما حدث في الصباح السابق بالضبط حين لمس ذراعيه جلدُ أديلا الفاتر. هكذا، خطوة تلو الأخرى، اكتسبت أديلا أمامه هيئة مادية: ابتسمت في ابتسامة أبيها، وتنفست في تنفسه، ومشت في مشيته، وعلى الرغم من أن رامون لم يسمعها قط تنطق أكثر من عبارتين معًا، إلا أنه سمعها تمزح وتبكي وتضحك. توقف ليرتاح في منتصف الطريق. أغلق عينيه ودلّك مؤخرة رقبته، لكن الصورة الشبحية لأديلا، البعيدة كل البعد عن الاختفاء، تنامت داخله؛ تنامت إلى درجة أنه وجَّه نظرة يكتسحها البؤس تجاه العجوز، الذي اقترب منه وسأله:

- ما الأمر؟

كسر صوت ناتاليو الحاد التعويذة وتبددت صورة أديلا وسط غبار الصباح.

أجابه رامون بتنهيدة مرتعشة:

- لا شيء.. ما من شيء يحدث لي.

وصلا إلى البيت ودخل رامون الغرفة. جاء إليه عبير يعرفه: عطر الزهور الذي فاح من أديلا حين عثر على جسدها ممددًا عند أحد أركان حقل السورغم. كانت كلوتيلدي قد رشت بعض قطرات العطر لمحو آثار رائحة الجثة من الأجواء. أخلّت الرائحة الحُلوة الزهرية بتوازن رامون. لقد تسلل

إليه شبح أديلا مجددًا. هذه المرة عبر أنفه. تراءت له بغتة فوق الفراش، وهي عارية وترفع ذراعيها إليه، ورائحة الأزهار تفوح منها. فكر: «إنه حلم.. أنا منهك»، مستسلمًا إلى أنه سيعاني بعض الوقت من حضور أديلا الكلي كميتة. بعدئذٍ، تركها وراءه وهي راقدة فوق الفراش وجلس ليتناول إفطاره.

قدمت له كلوتيلدي «التامال» مع الفاصولياء المقلية وقهوة بدون إضافات. تناول رامون طعامه بسرعة، من دون أن يرفع نظرته من فوق طبقه تقريبًا. قرر ناتاليو وكلوتيلدي ألا يشتتا انتباهه وأن يبلعا حزنهما في صمت، من شدة تركيزه مع كل قضمة.

لما انتهى، رفعت كلوتيلدي البقايا. نظفت المائدة بعناية، من دون أن تترك شيئًا فوق سطحها. نهض ناتاليو بطريقة رسمية من مقعده وذهب لجلب صندوق من الورق المقوى. وضعه فوق ساقيه. فتحه وأخرج رزمة من الأوراق، وبحرص فصل واحدة منها.

مد يدًا وناول رامون ورقة مصفرة:

- إنها درجات أديلا وهي في الصف الخامس الابتدائي. كانت جيدة في الدراسة..

واصل ناتاليو حديثه بعد أن ارتسم على وجهه تعبير خفيف بالفخر:

- لطالما قالت المعلمة إنها أفضل من في المدرسة.

قبل أن ينظر رامون إلى درجات تسعة من عشرة وعشرة من عشرة المتنوعة في الإسبانية والرياضيات والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية، تأمل رامون صورة أديلا المثبتة بدبوس في الجانب العلوي من الورقة. إنها صورة مجعدة وغبشاء، بالأبيض والأسود، تُظهر جانبَي وجهها وثلاثة أرباع نصفها العلوي. تظهر أديلا بجدية فيها، بشعرها المصفف إلى الوراء،

وجبينها المنحسر، وعينيها الفاتحتين اللتين تنظران إلى نقطة غير محددة.

علّقت كلوتيلدي من جانبها:

- هنا كان عمرها ثلاثة عشر عامًا. كانت أطول من في فصلها.

التفت رامون ونظر إليها كي يوجه لها سؤالًا سطحيًا، لكن المرأة صمتت ولم تعد تعيره اهتمامها. ثمة شيء خطر على بالها فانطبعت على وجهها إيماءة طفولية بعيدة. فحص رامون الصورة مجددًا. لم ترتدِ أديلا قرطًا. لم يبد أيضًا أنها طلت شفتيها أو حددت رموشها. تدلت من عنقها سلسلة رفيعة اختفت بين ثنايا قميصها؛ قميصها الأبيض. تساءل رامون ما إذا كانت قد ارتدت تنورة صفراء يوم التُقطت هذه الصورة. لم يقدر على تخيلها بصورة أخرى غير المساء الذي تعرف فيه إليها.

فتش ناتاليو في الصندوق وأخرج صورة أخرى. هذه صورة فورية ملونة، لكنها باهتة وكالحة، تظهر فيها أديلا وهي جالسة في منتصف أريكة حديدية، مع كشك موجود في خلفيتها.

قال له العجوز بصوت منكسر:

- هذه آخر صورة التُقطت لها. حدث هذا قبل وقت قليل جدًا من مجيئنا إلى هنا.

سأل رامون:

- أين التُقطت؟

أجابته كلوتيلدي:

- في ميدان ليون الرئيسي، في يوم عيد ميلادها.

ود رامون أن يسأل عن التاريخ، إلا أنه لم يتجرأ. ابتسمت أديلا في

الصورة. لم يرها رامون قط وهي تبتسم. كذلك، لم يعرف قط ما هو تاريخ ميلادها.

3

مر صباح رامون بين صور، وخصلات شعر، وشهادات دراسية، ودمى مكسورة، وبطاقات احتفالات بعيد الميلاد، وأوسمة مدرسية. حاولت كلوتيلدي ومعها ناتاليو استعادة ابنتهما عبر هذه الخيوط البالية؛ لا من أجل رامون، وإنما من أجل نفسيهما بصورة أكبر.

أنصت إليهما رامون في البداية باهتمام، إذ إن الإفطار جعله يستعيد معنوياته، إلا أنه شعر حين انتصف النهار أنه منهك. استمع دائخًا إلى حكايات العجوزين وطلب قهوة ثقيلة أكثر من مرة، لأنه ود أن يُبعد شعور الثقل عنه، وبالأخص ألا تتراءى له أديلا في وجه أبيها. حاول أن يرحل ثلاث مرات، إلا أن العجوزين حوَّلا وداعه إلى ذكريات طويلة أفشلت رحيله. في المرة الرابعة، ولأن رامون عزم فعلًا على المغادرة، أوقفه ناتاليو بعبارة: «انتظرني برهة». توجه بعدئذٍ إلى خزانة الملابس وعاد مع رزمة من الخطابات التي وضعها فوق الطاولة.

قال له:

- إنها لك.

نظر رامون إلى الخطابات، حائرًا.

- لي أنا؟ لماذا؟

أجابه الأب:

- لقد كتبتها أديلا لك.

جلس رامون مجددًا، لأنه وسط عزمه على الرحيل كان قد وقف فعلًا، فتدخلت كلوتيلدي:

- لقد تحدثت أديلا معنا عنك بالفعل.

تسارعت دقات قلب رامون. لا بد أن ثمة خطأ هنا؛ فما من شيء يربطه فعلًا بها.

أمرته بعذوبة:

- خذها لك. إنها رسائل غرامية.

مندهشًا، ود رامون أن يعيدها، فرفضت كلوتيلدي بحسم.

قالت بنبرة لاذعة:

- لقد أحبتك ابنتي فعلًا. لا تنبذها بعد أن ماتت.

كرر ناتاليو لما رأى ارتياب الفتى:

- إنها لك. اعتادت أن تكتبها لك ليلًا، وهي تظن أننا نائمان.

أخذ رامون الرزمة، وعلى الرغم من رفضه تصديقهما، إلا أنه لم يشك قط في أن العجوزين يحاولان خداعه.

ألقى الوداع لكن قبل أن يخرج، أوقفه ناتاليو وقال له:

- شكرًا.

سأله رامون حائرًا:

- لماذا؟

- لأنك أحببت ابنتي ولأنك ستتحمل عني مسؤولية قتل إنسان.

ابتعد قدر استطاعته عن لوما غراندي وهو يركض بخطوات واسعة بين الأجمات والرسائل أسفل ذراعه. بحث عن مكان ظليل يجلس فيه ليقرأها في هدوء. اختار حجرًا بارزًا أسفل جذع شجرة مسكيت. كانت الرسائل، وعددها نحو خمسين رسالة، موضوعة في أظرف غير مغلقة وكل ثنياتها من دون استثناء غارقة بعطر الورود.

بدأ في تفقدها عشوائيًا. أغلبها مرسل إلى شخص مجهول اسمه «حُبي»، أما البقية فلم تتضمن مرسلًا إليه أصلًا. ظهرت في بعض الصفحات رسوم لأزهار وقلوب مع عبارة «أنت وأنا». كُتبت بعض هذه العبارات بخط متقن ومفخم، والبعض الآخر كمجرد شخبطة في صورة خطوط غير مفهومة، أما نحويًا فكانت متفاوتة وفوضوية وعبارة عن خليط مُربك من العبارات غير المتصلة. سريعًا أدرك رامون السبب: لقد مزجت أديلا بين عباراتها الشخصية ومقاطع من أغنيات رائجة نسختها من سلسلة كتب «النوتات الموسيقية الصغيرة» لتجميع الأغاني. تعطي كل هذه الفوضى انطباعًا بأنها رسائل مشفرة إلى حبيب قد يكون «الغجري» نفسه. كان رامون ليظن هذا الأمر، لولا أنه اصطدم بخمس جمل قضت على دوخة الشك:

«تعرفت اليوم إليك في المتجر. أنت رجلٌ فجريّ. تروقني كثيرًا. سأعود مائة مرة إلى المتجر فقط من أجل رؤيتك. أود أن أكون الوحيدة في حدود حبك».

كفت هذه الفقرة كي يعدل رامون من قراءته غير المكترثة. لما تقدم، عثر على عدد لا يُحصى من الإشارات الخفية التي تتماشى مع المرات الثلاثة التي تقابلا فيها وجهًا لوجه، وحيث أشارت أديلا إلى تفاصيل لا يعرفها أحد سواهما. لم يعد ثمة مجال للشك: لقد أغرمت أديلا سرًا به. الآن، عليه أن يرد

على هذا الغرام.

4

لما دق الباب، كان ناتاليو فيغيروا وكلوتيلدي أراندا غارقين في رقاد قيلولتهما العميق. فتح ناتاليو إحدى الستائر ورأى رامون واقفًا إلى جوار البيت. سأله من النافذة:

- ما الأمر؟

اقترب رامون ورزمة الرسائل معه. بدا متوترًا ومتعرقًا. قال:

- جئت كي أطلب منك خدمة.

- وهي؟

اقترب رامون أكثر وأخذ نفسه، فارتسمت صورته الشبحية بعكس اتجاه الضوء:

- أن تهديني صورة لأديلا.

هز العجوز الذي زاغ بصره من شمس الخامسة عصرًا اللامعة وراء رامون رأسه رافضًا.

- الصور التي رأيتها هي الوحيدة الموجودة عندي.

احتج رامون:

- أعرف، لكن ليس لديّ أي صورة.

احتار ناتاليو، لأنه لم يود أن يتخلى عن أي واحدة من صور ابنته الثمانية

الموجودة لديه، فهذا هو الشيء الوحيد الباقي منها. في النهاية رفض بحسم:

-لا.

جاءت كلوتيلدي إليهما. رفعت يدها. ظهرت فيها الصور الثمانية كأنها أوراق في لعبة البوكر. استدار ناتاليو ونظر إليها ليؤنبها. مع ذلك قالت:

- سأعيرك واحدة.

تفقدها رامون: أديلا وهي في عمر الثالثة جالسة إلى حجر امرأة مسنة؛ أديلا وهي في عمر الخامسة مع أطفال آخرين؛ أديلا في عمر العاشرة وهي تحيي عرّابها، أديلا في الحادية عشرة في مناولتها الأولى؛ أديلا وهي أيضًا في عمر الحادية عشرة أمام بوابة كنيسة إلى جوار قس ما؛ أديلا في الرابعة عشرة وهي تطل برأسها من نافذة حافلة؛ وهي في الخامسة عشرة في حفلة مدرسية، أديلا وهي في الخامسة عشرة أثناء جلوسها على أريكة حديدية في عيد ميلادها. حكى له ناتاليو قصة كل صورة: أين التقطت، ومع من وتاريخها وسببها.

فتحت كلوتيلدي الأوراق كمروحة يد. قالت لرامون:

- اختر.

نظر إليها رامون مجددًا من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار، ثم قال:

- لا أود أيًا من هذه الصور.

رفعت كلوتيلدي كتفيها، وسألته مرتبكة:

- إذن، أي صورة؟ ليس لدينا غير هذه الصور.

لم يتمكنا من مشاهدته وهو يشير إلى الصندوق الذي ظل فوق الطاولة،

من شدة الشمس التي بهرت عينيها من وراء ظهره.

قال:

- هذه.

تفقدت كلوتيلدي الغرفة ببصرها، واستفسرت:

- أي صورة؟

- الملصوقة في الشهادة.

فكت كلوتيلدي تدبيسها بحذر لكيلا تنقطع، وقبل أن تسلمها له حذرته:

- ستستعيرها فقط.

أضاف ناتاليو:

- مع ضرورة إعادتها.

عاد إلى بيته. حيا أمه بعبارة «ما أخبارك؟» وتوجه ليمد جسده فوق فراشه. رغم إنهاكه، أعاد قراءة الرسائل. لم يظهر تاريخ على أي منها، إلا أنه حاول تنظيمها وفقًا لترتيب زمني، ولكيلا يدع مجالًا للشك عن هوية المرسل إليه في هذه الخطابات، رسم فيها بقلم قلوبه الشخصية، وملأها بطريقة لا نهائية بكلمتَي: «رامون وأديلا». أخرج الصورة من الجيب الأيسر للقميص الذي أعاره له بدرو، وتأملها لفترة طويلة. في تلك اللحظة، نسي أن أديلا مجرد قطعة لحم هامدة تحت الأرض. نسي الأمر لأنه رآها تجلس إلى جواره على الفراش وشعرها معقوص في ضفيرة نحو الخلف وهي تداعبه بابتسامتها. نسي الأمر لأنه كان نائمًا ويحلم.

الفصل الحادي عشر: شبر وثلاثة أصابع.

1

استيقظ خوستينو تِييث مرتبكًا من شخيره الذي بدا كالرعد وصرخ:

- من هناك؟

نهض وتفقد الغرفة بدقة. لم يجد أحدًا وظن أن الضوضاء جاءت من إحدى القطط. مرر يده فوق رأسه، فتبللت أصابعه. انغمر المنزل بسخونة حر لزج يكاد معها المرء أن يلمسه كأنه زيت موجود في الهواء.

غمغم:

- اللعنة.

لقد نام بملابسه. لطالما فعل هذا الأمر ولطالما أطلق السباب بسببه، لأنه يجعل رائحته منفرة كرجل عجوز. خلع القميص ووضع إسفنجة في طست مملوء بالماء. رطب ذراعيه وعنقه وإبطيه. نظر إلى قميصه الذي قد اغمقَّ لونه بفعل العرق. ود أن يغيره، إلا أنه وجد أن بقية القمصان أقذر منه. قرر أن يرتديه مجددًا، لأنه ما من أحد بات يدقق ما إذا كان يعتني بملبسه أم لا.

بصق لعابه الذي امتزج فيه طعم الأرق بمذاق الجعة المُرة، ثم تغرغر بالماء وفتح الباب لتهوية الغرفة.

اشتد وطيس الشمس بغضب في الشارع. نظر خوستينو إلى ساعته،

وفكر: «إنها الرابعة وهذه الشمس الملعونة لم تنته بعد».

توجه إلى الموقد وشغله. ارتعشت الشعلة بضعف، علامة على أن الغاز أوشك على النفاد. سيضطر إلى أن يذهب إلى ثيوداد مانتي قريبًا لتبديل الأنبوبة. وضع مقلاة فوق النيران فيها بقايا طبق «مقالي المُدرع» الذي أهداه إليه رفيقه إكتور مونتانارو. تركه ليتحمر عدة دقائق لأن الطعم المُر للحم شبه المحترق يروقه.

تناول اللحم ببطء ليستمتع بمذاقه بصورة أفضل. مص كل عظمة إلى أن تركها نظيفة. فتح زجاجة «كوكا كولا» بعدئذ وتجرعها من مرة واحدة. تذكر آثار أقدام القاتل. ينبغي أن يعود إلى مسرح الجريمة لقياسها مجددًا. سيذهب لاحقًا للبحث عن روتيليو بوينابينتورا لسؤاله عن مقاس حذاء «الغجري».

خرج من بيته ومعه حقيبة تتضمن بقايا الطعام. اقترب منه كلبان هزيلان جربانان في سعادة وهما يهزان ذيليهما. ألقى إليهما خوستينو بالبقايا فانقضا عليها وكل منهما يزمجر للآخر.

مضى خوستينو عبر المسار المؤدي إلى النهر. بدأ المساء يأفل، على عكس الحر الذي بدا متجذرًا في المشهد. نعق اثنان من ذكور طائر السوادية وهما يجلسان فوق رأس شجرة مسكيت، فيما خرجت منطلقة من بين أشجار التين الشوكي بعض الأرانب البرية. أمسك خوستينو بحجر ليرميه على رأسها قبل أن تبدأ ركضها. هكذا، اعتاد أن يصطادها في طفولته. لطالما أفقدها وعيها بالحجارة، قبل أن يقضي عليها لاحقًا بضرب رقبتها بطرف كف يده. مر وقت طويلة على آخر مرة تمكن فيها من اصطياد أحدها بهذه الطريقة، لكن هذا لم يمنعه من محاولة الأمر بين الفينة والأخرى.

لدى وصوله إلى حقل السورغم، غلبه هدوء المساء. أغرقت طيور

السمان الحقل بتغريدها، فيما وقف بعض الحمام أبيض الأجنحة ليأكل فوق العيدان المليئة بالحبوب. سار حتى المكان الذي سقطت فيه أديلا بالضبط. لم يبق شيء من آثار الجريمة سوى بقعة دماء جافة بنية اللون وبعض عيدان السورغم التي دهسها وزن الجثة. بدا كأي حقل غيره، لكنه لن يصبح كذلك لأن بيكتور بارغاس -المسؤول عن زراعته- أقسم في الليلة الماضية أمام عدة أشخاص أنه لن يعمل داخله مرة أخرى.

برر قراره:

- رائحة الموت العفن لن تترك هذا المكان أبدًا.

لقد حُكم على هذه الأرض بأن تلتهمها الأجمات: لن يسعى أحد إلى تأجيرها ولن يطلب أحد امتياز العمل فيها بحجة أنها مهجورة.

2

تفقد خوستينو تِييث المنطقة: لا تزال الآثار التي خلفتها أديلا ومعها القاتل مرسومة بكل وضوح. قرفص وقاسها: هي شبر، والمجرم شبر وثلاثة أصابع. كرر عملية القياس ليتأكد، وبدافع الفضول جرب مقاسه هو الآخر: شبر وما يزيد عن ثلاثة أصابع بقليل. لا بُد أن مقاس قدم القاتل سبعة وعشرون ونصف، مثله.

تتبع الأثر بين الأرض المحروثة، بحثًا عن منبعه. ثمة مرات فقد فيها الخيط، إلا أنه ظل يلف ويدور في دوائر ليعثر عليه مجددًا. أثبتت الأرض الرخوة وآثار الأقدام أن كليهما ركض وأن أديلا لم تتوقف إلى أن تعرضت للقتل. اقتحمت آثار الأقدام منطقة عشبية كثيفة ومغلقة. لم يغامر خوستينو

باجتيازها، ففي تلك الساعات من المساء تتجول أفاعي الـ«ناوياكا» بين الأعشاب الطويلة وخاف من أن تُهاجمه إحداها. لقد شاهد دوابًا تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد لدغتها وهي تتأوه من دون عزاء وترفس بقوائمها بغضب إلى أن تنهار مختنقة من تشنجاتها.

دار حول حقل الأعشاب الطويلة. حزر موقع النقطة الأخيرة التي ترك فيها الأثر وتفحص ضفافه الموحلة برسم بعض الإحداثيات الخيالية. لم يعثر إلا على بعض مسارات الأيائل وحيوانات الغُرير. عثر بالصدفة أثناء بحثه على ممر ضيق للبهائم يخترق الأجمات المتشابكة الموجودة بمحاذاة النهر. دخل فيه وعبره بصعوبة، مقرفصًا طوال الوقت لكيلا تخدشه الأغصان السفلية. وجد أن الطريق أصبح غير قابل للتقدم. لما ندم وود أن يعود أدراجه كان الوقت قد تأخر: لقد قطع أكثر من مائتي متر. ستصبح العودة مؤلمة كالذهاب. هكذا، قرر أن يمضي قدمًا. كلما تقدم، ارتفعت أسراب من البعوض من بين أوراق الأجمات وغربلت جسده بلدغاتها. ضرب خوستينو نفسه براحة يده في محاولة لدهسها، ورغم أنه قتل بعضها، إلا أنه لم يتمكن من تخفيف اللدغ. اشتد الحر داخل هذا النفق الأخضر بعنف. وأكسبت الرطوبة والطمي جلده ملمسًا لزجًا. باتت ملابسه مبللة بالعرق وكأنه طبق حساء، فيما طقطق ظهره من كثرة سيره منحنيًا.

زمجر بصوت مرتفع:

- أي شيء ملعون أفعله هنا!

تقدم مائتي متر أخرى وهو يكاد أن يسير على أربع. أفضى الدرب إلى أرض خاوية ضخمة يُخفيها نسيج الأشجار. خرج خوستينو من الممر وجلس ليرتاح فوق جحر نمل بارز ومهجور. صاحت بعض طيور الزرياب بعد أن فزعت من وجوده، فألقى عليها بعض التراب لإبعادها. حلقت الطيور نحو

الجانب الآخر من النهر، واستمرت هناك في إصدار جلبتها.

قرر خوستينو، رغم إنهاكه أن يبذل جهدًا أخيرًا لمواصلة بحثه، لأن الكشف عن تفاصيل الجريمة شغله جدًا.

لم يعرف هذه الأماكن جيدًا، لكن كل المؤشرات قالت إن حقل الأعشاب الطويلة الذي تفاداه ينتهي عند هذه الأرض الخاوية. لا يصبح العشب أقصر وأقل سوى هنا بصورة يغدو بها هذا المكان مرعى طبيعيًا للمواشي.

نهض وبدأ يتفقد الأرض المنبسطة. إن قوامها سائب إثر قربها من حواف النهر ويبرز أي أثر فوقها بوضوح، ومن كثرة آثار حوافر الخيول والأبقار شق على خوستينو الإمساك مجددًا بخيط آثار الأقدام التي كان يتبعها. لم يكن لينجح في الأمر، لولا أنه اكتشف قطاعًا من العشب الطويل مقطوعًا بساطور قرب إحدى النخلات وفي وسطه تنورة سوداء وقميص أزرق مثنيان، قرب ملاءة بيضاء.

3

لم تُجرّد من ملابسها عنوة. لم تكن أي من الملابس الموجودة مقطوعة أو ممزقة، وإنما مُطبقة بعناية دون بقع أو تجاعيد. عثر أسفل القميص على فردتَي حذائها، ولباسها التحتي ومشد صدرها، وحوله آثار أقدام كليهما. فحصها خوستينو أثرًا تلو الآخر. جاءت جميعًا من عند ضفة النهر وعكست أمرًا لا يقبل الجدل: لقد وصل القاتل وضحيته إلى نفس المكان معًا، إذ ارتسمت خطواتهما المتزامنة بكل وضوح. في بعض المسارات، توقفت الآثار وتقابلت وجها لوجه، كأن الثنائي توقف لتبادل القبل أو للعناق. في البداية، تشكل الخيط من آثار أقدام ترتدي أحذية: هو بحذاء رعاة البقر ذي الكعب العالي،

وهي بالحذاء الذي اكتشفه هناك. بعدئذٍ، يبدو أن تعريًا بطيئًا قد حدث ثم أعقبته تمشية قصيرة نحو الملاءة التي صارت فراشًا لتطارح الغرام. بدت بقية الأمور الأخرى مُربكة: خطوات الرجل تمضي جيئة وذهابًا؛ في البداية حافيًا ثم بحذائه قبل أن تبتعد خمسين خطوة في اتجاه الغرب. انبثقت خطوات أديلا من عند الملاءة وهي تتفجر في عملية ركض مسعورة، ثم خطواته هو وراءها وهي تقطع الخمسين مترًا بصورة مدوخة وتُطير الوحل مع كل خطوة. استمرت المطاردة حتى حقل الأعشاب الطويلة الكثيف، ومنه حتى أحد أركان حقل السورغم حيث انتهت أخيرًا عملية الصيد المتوحشة.

شعر خوستينو بالاضطراب. لم يجد تفسيرًا لأسباب القاتل المفاجئة لغرس سكينه في أديلا بعد دقائق من مطارحتها الغرام. لقد جهزت أديلا بكل لين ومودة ميتتها. لقد انتهت مسألة الملابس المُطبقة بعناية وملاءة الغرام والركن الخفي والسري وعُري الفجر بمطاردة مجنونة وطعنة أصابت هدفها. ما السبب وراء هذه المطاردة الجامحة والمميتة؟

أخذ خوستينو التنورة السوداء والقميص الأزرق. فاح منهما العطر الزهري. إنهما الدليل على أن أديلا كانت على علاقة بقاتلها ويُظهران أنها لم تتعر عنوة، أو أنهما على الأقل يتعارضان مع رواية رانولفو كيرارتي الذي يؤكد أنه رأى قميصها مقطوعًا.

أخرج خوستينو مطواته من غمدها وبنصلها قطع الملابس حتى تحولت إلى عدة خرق بالية. فعل نفس الشيء مع الملابس الداخلية والملاءة، ثم مسح بسعفة آثار كل خطواته. سار في اتجاه النهر وألقى قطع القماش والحذاء لتمضي مع التيار. طفت الأدلة المُدمرة لفترة وجيزة مع دوامات الأوراق وأثفال القصب، ثم غطست أسفل المياه.

إن تقديم هذه الأدلة في القرية لم يكن ليؤدي إلى أي شيء؛ لن يُغير لدى

الآخرين فكرة أن «الغجري» هو القاتل. ما كانت ستفعله فقط هو أن يحاول المجرم الحقيقي إخفاءها؛ هي ومن اكتشفها. لم يفكر أيضًا أن يعود إلى هناك بنبأ أن أديلا كانت فتاة هائجة جنسيًا يسهل إثارتها؛ وأنها قد ذُبحت وثمة نصف انتشاء لا يزال ملتصقًا بجسدها. ما من داع لقهر نفس والديها أكثر من هذا. إن أفضل شيء هو عدم تعقيد الأمور بصورة أكبر وتمني ألا يعود «الغجري» إلى القرية لو أنه بريء حقًا؛ أو تمني ألا يُقتل إن عاد فعلًا.

بدأ الليل يُسدل ستاره، فسار خوستينو في الاتجاه المعاكس للطريق الذي وصل منه العاشقان إلى فراش موعدهما الأخير، ليخرج من الأرض الخاوية. كان طريقًا خفيًا يصعب اتباعه وتحميه أجمات المرأة السيئة ومخلب القط ويتقاطع مع الطريق المؤدي من لوما غراندي إلى أرض مشاع باستوريس. وسط ظلال المساء، تمكن خوستينو من تحديد موقعه وتوجه جنوبًا، في اتجاه بيت روتيليو بوينابينتورا.

4

كان روتيليو يستمع إلى شريط موسيقي لفريق «تيغريس ديل نورتي» في جهاز الـ«ووكمان» الذي أهداه إليه «الغجري». لطالما فضَّل هذا الشريط وشريطًا آخر يضم تسجيلات وهمية منسوبة إلى كارو كينتيرو[1] وهو في السجن. لديه أكثر من ستين شريطًا. يجلب له «الغجري» في كل زيارة أربعة أو خمسة شرائط. يشتريها من محطات البنزين أو من مقاصف سائقي الشاحنات. حاول دائمًا أن يُنوع خياراته: الكومبيا، والمامبو، والروك،

(1) رفائيل كارو كينتيرو: أحد أشهر تجار المخدرات في المكسيك، شارك مع ميغيل أنخل فيليكس غاياردو في تأسيس كارتيل غوادالاخارا الشهير. (المترجم).

والبولكا[1]، والنكات بل وحتى تسجيلات بث حي لأفضل مباريات كرة القدم لفريق كورّيكامينوس التابع لجامعة تاماوليباس المستقلة.

باستماعه إلى الـ«ووكمان»، يُسلي روتيليو نفسه في أمسياته التي لا تنتهي كشخص أعمى. لقد فقد نظره وهو في عمر الثامنة. لطالما أرجع عماه إلى الشهور الكثيرة التي قضاها يعمل في مستودع لتخزين المبيدات الحشرية، لكن اليقين الوحيد هو أن إصابته بالرمد الحبيبي تسببت في ضياع بصره. كانت العدوى حادة إلى درجة أن الطبيب الذي فحصه اضطر إلى تفريغ محجرَي عينيه ووضع عينين صناعيتين رخيصتين رديئتين من الزجاج في تجويفهما.

أطل خوستينو من إحدى النوافذ وشاهد العجوز يجلس مرتخيًا في مقعده، مُرخيًا جفونه، وسماعته فوق أذنيه. تجولت في الغرفة عشر دجاجات يحتفظ بها روتيليو في بيته لكيلا تسرقها حيوانات الغرير والراكون، وهذا لأنه يعيش على هذه الدجاجات والخمسة دولارات التي ترسلها له شهريًا ابنته التي تعمل كبائعة في أحد متاجر الخدمة الذاتية التابعة لسلسلة «سيفين إليفين» في هارلينغن، تكساس.

هتف خوستينو من عند النافذة:

- مساء الخير.

نقنقت إحدى الدجاجات مفزوعة وطارت ولفت من فوق العجوز، لكن لم يبدر منه شيء، بل إنه لولا قرع روتيليو الخفيف بأصابعه مع إيقاع الأغنية، لبدا نائمًا.

كرر خوستينو تحيته:

---

(1) أنماط موسيقية متنوعة. (المترجم)

- مساء الخير!

لكن الأعمى ظل ثابتًا بلا حراك. دفع الباب ودخل. لمس كتف روتيليو بلطف، فقفز العجوز وفتح عينيه الزجاجيتين.

سأل وهو يخلع السماعة: ما الأمر؟

- إنه أنا خوستينو.

قال روتيليو:

- أهلًا. يا لها من معجزة. اجلس حيث ترغب.

جلس خوستينو إلى جواره. اعتاد العجوز أن يشعل مصباح غاز مع حلول المساء بدافع الكياسة تجاه أي زوار محتملين، رغم أن أحدًا لم يعد يزور بيته. لم يطب لخوستينو الوجود معه، إذ تزعجه نظرته الصناعية. مع ذلك، راقه الرجل نفسه بل وتسلى بمحادثته.

قال روتيليو:

- ماتت إحدى دجاجاتي. أظن أن الحر قتلها.

فاض كل ركن في البيت بالريش والقذارة وفاحت من المكان بالكامل رائحة لاذعة.

أضاف مواصلًا حديثه:

- علمت أنها ماتت حينما ظهر البعوض في غرفتي.. المشكلة الآن هو أن هذا البعوض الملعون يرفض الرحيل.

التفت خوستينو باتجاه السقف ووجده ممتلئًا بكمية كبيرة منه. كان على وشك أن يقترح عليه رشها بالـ«دي دي تي»، لكنه تذكر رهاب روتيليو من

المبيدات.

نصحه:

- استخدم هذه الأوراق التي يلتصق بها البعوض.

ابتسم العجوز.

- لا، لأنني بعدئذٍ سأنسى أين وضعتها وسألتصق أنا بها.

ابتسم خوستينو هو الآخر.

قال روتيليو معتذرًا:

- لم أعرض عليك قهوة، لأنني ليس لديَّ شيء منها، لكن في الطنجرة لديك بعض من زهور اليوكا المسلوقة مع البيض، لو أنك تود بعضًا منها.

اعترض خوستينو حديثه:

- لا، شكرًا. أكلت للتو.

بدأت الدجاجات واحدة تلو الأخرى تدخل في العشش التي صنعها لها الأعمى تحت السرير، فتسببت هدهدة الطيور وهي ترفرف بجناحيها في تعكير الأجواء.

لم يُظهر الأعمى أي أدلة على معرفته بوقوع الجريمة. لم يعرف خوستينو كيف سيسأله عن «الغجري».

استشعر روتيليو نوعًا من الجزع في المفوض فالتفت بوجهه نحوه. برقت نظرته الزجاجية مع شعلة المصباح.

اختلج خوستينو، وقال متوترًا محاولًا إخفاء ارتباكه:

- سيوزعون مزيدًا من الأراضي على الجُدد.

علق روتيليو:

- وكيف سيفعلون هذا إذا لم تكن ثمة أراض أخرى أصلًا؟

انتظر العجوز بلا فائدة ردًا لم يأت من خوستينو الذي ظل صامتًا، ثم سأله فجأة:

- ما الذي يحدث معك؟

قال خوستينو متفاديًا النظر إلى عينَي العجوز:

- جئت كي أسألك عن أمر ما.

دفع روتيليو جسده نحو الخلف.

- إذن. هات ما عندك. كل ما أطلبه منك ألا تلف وتدور.

ود خوستينو أن يُحقق معه بعمق وأن ينتزع منه ألغاز «الغجري» نزعًا: ما إذا كان يعرف ما الذي فعله فجر الأحد؟ وهل جمعته علاقة بأديلا؟ وما الدافع وراء إقاماته الطويلة في لوما غراندي؟ وما الأسباب التي دفعته إلى الرحيل عن القرية بمثل هذه السرعة؟ لكن هذه الأسئلة كلها لخصها في سؤال واحد:

- هل تعرف مقاس حذاء «الغجري»؟

قهقه روتيليو وقال:

- إنه صديقي وليس حبيبي.

ضحك برهة أخرى ثم هدأ وأضاف:

- لا أعرف، لكنه يترك هنا حقيبة فيها ملابسه لكيلا يسير بحمل زائد.. من الممكن أن يكون قد احتفظ بحذاء له فيها.

أشار روتيليو، داخل التباس عماه، نحو أحد أركان الغرفة وقال:

- ابحث عنها هناك.

عثر خوستينو على حقيبة صوفية في المكان المشار إليه، فجلس على الفراش وبدأ يتفقدها.

سأله روتيليو:

- ولماذا تود معرفة مقاسه؟

لم يُجبه خوستينو وهو يُمسك في يديه بفردتَي حذاء رياضي. لقد حُسمت الحيرة حول براءة «الغجري» وإدانته: مقاس الحذاء شبران بالكامل.

هتف خوستينو:

- تسعة وعشرون ونصف.

التفت روتيليو نحوه وسأله:

- ما الذي تورط فيه خوسيه؟

نطقها وهو يشدد على نطق «خوسيه»؛ الاسم الذي اعتاد أن ينادي به «الغجري».

تنهد خوستينو قبل أن يُجيبه، ثم قال وهو يضع الحذاء الرياضي مُجددًا في الحقيبة:

- في ورطة كبيرة.

سأله الأعمى:

- هل يتعلق الأمر بالنساء؟

أجابه خوستينو:

- أجل. بالنساء.

في تلك الأثناء فكر: لماذا اخترع «لا أميستاد» مشهد الشد والجذب والعنف بين «الغجري» وأديلا؟ ما الذي كسبه من هذا الأمر؟ هل هو القاتل الحقيقي؟ تذكر أنه لم ير أثرًا لإطارات دراجة هوائية بالقرب من موقع الجريمة. لماذا أكد رانولفو أنه كان هناك؟ هل فعلها ليُخفي شيئًا أم أنها مجرد كذبة بسيطة وحمقاء؟

نهض خوستينو مستعدًا للرحيل. لقد تحقق من براءة «الغجري». مع ذلك، لن يفعل شيئًا ليدافع عنها. لن يضع يديه في النيران من أجل غريب يعرفه لِمامًا. فكر: «إنها ورطته، لا ورطتي».

لكنه ليتحرر قليلًا من الذنب، قال لروتيليو من عند الباب:

- لو رأيت «الغجري»، فقل له أن يتوخى الحذر لأنهم.. يودون أن يقتلوه.

ود روتيليو أن يسأله تحديدًا من الذي يود أن يقتله، لكنه لم يعد يشعر بوجوده في الغرفة.

5

مجددًا، ظل روتيليو وحيدًا مع الدجاج وغياهب ظُلماته. وضع السماعة فوق أذنيه، لكنه لم يضغط زر التشغيل. افتقر إلى المعنويات اللازمة لسماع الموسيقى. شعر بالقلق. أحب «الغجري» جدًا، فهو الوحيد بين الكل، بمن فيهم أبناؤه، الذي اعتنى به وتسامح مع شكاوى عماه وقنوطه كرجل عجوز، بل وأيضًا الوحيد الذي تحمل حماقته الكئيبة. ثمة أشخاص يترصدونه

لقتله. يعرف روتيليو السبب: غابرييلا باوتيستا. كم مرة حذره من التورط معها! لطالما حذره: «لن تنتهي أمورك على خير. زوجها وغد عكر المزاج ولو أمسك بكما أثناء لعبتكما فسيقتلكما بالرصاص»، لكن «الغجري» اعتاد أن يبتسم متحديًا لأن ندباته دليل على أن الأزواج المخدوعين لا يقدرون عليه، فيصر روتيليو: «أجل، لكن غضب زوج غابرييلا شأن آخر، فهو قادر في أكثر لحظة مستبعدة على تمزيق أحشائك». اعتاد «الغجري» أن يشكره على نصائحه بالتربيت على كتفه قائلًا: «لا تقلق على سلامتي، أنا قط بتسع أرواح».[1]

من المؤكد أنهم قد باغتوا «الغجري» في واحدة من مغامراته مع باوتيستا، لأنهما كانا يخاطران في لقاءاتهما مع كل مقابلة جديدة. في البداية، حرصًا على ألا يُبدي أي منهما اهتمامه بالآخر علنًا، بحثا عن أماكن نائية وليالٍ ملائمة، لكنهما تخليا مؤخرًا عن كل مظاهر الحكمة وسعى كلٌ منهما وراء الآخر بتبجح. تبادلا قبلات مختلسة في الشارع وتلاطفا صباحًا في أماكن قريبة من القرية، بل إن روتيليو اضطر أحيانًا أن يخرج خلسة من بيته وأن يعيره إليهما كمخدع ليلي في عطلات الأسبوع التي غاب فيها بدرو عن لوما غراندي ليشمل، لكنه طلب منهما لاحقًا أن يذهبا بفجورهما إلى مكان آخر، بعد أن مل الانتظار طيلة ساعات انتهاء العاشقين من لُهاثهما، وخوفًا أيضًا من اتهامه بالتستر على العلاقة الغرامية ومن أن يلحق به مصير سيئ في هذا الموضوع. لم تحتج غابرييلا وهو نفس ما فعله «الغجري» لأن حفظ الأعمى لسرهما كان أمرًا كافيًا.

وها هو ذا، انتقام بدرو سالغادو الدامي، الذي توقعه روتيليو مرات

---

(1) في الثقافة الغربية يُقال عن القط إنه بتسع أراوح وليس سبع أرواح كما هو الحال في ثقافتنا العربية. (المترجم).

عديدة، يبزغ في النهاية. بدا له أنه لا مناص من حدوثه؛ فـ«الغجري» خاطر أكثر من اللازم بالرهان على امرأة متزوجة. ما يساعد بدرو، هو حقه كرجل مخدوع، ولهذا لن يقدر أحد على تأنيبه إن نصب كمينًا لخصمه، لأنه في النهاية يحق له قتله. علم روتيليو أنه ليس لديه طريقة للدفاع عن صديقه وأن الأمر الوحيد الذي يُمكنه فعله هو إبلاغه وتحذيره. لكن.. كيف له أن يفعل هذا الأمر وعماه فوق كاهله؟ كيف ينشر الخبر وهو يتحرك أصلًا بصعوبة في المساحة الصغيرة لغرفته؟ أين يمكنه أن يجده؟ من قد يثق فيه لإيجاده وتحذيره؟ لم يجد سبيلًا آخر غير انتظار أن يتمكن «الغجري» بقدرته السنورية على تفادي الموت مرة أخرى.

6

ابتلع خوستينو تِبيث غيظه وبصقه ممزوجًا بعصارته. لقد ضحك «لا أميستاد» عليهم جميعًا بكذبته، واكتسبت خدعته سرعة كبيرة جعلت إيقافها مستحيلًا. كون «الغجري» قد قتل أديلا في أعين الآخرين أصبح حكمًا نافذًا، بغض النظر عن أي دليل على براءته. لم يعد ثمة سبيل آخر سوى قبول الأمر. مع ذلك، ود خوستينو أن يتحقق من تفصيل أخير.

قرع الباب. فتح فتى صغير قذر متعرق نصف عار الباب له.

سأل خوستينو:

- هل أبوك موجود؟

استدار الطفل وبعد بضع ثوان خرج رانولفو كيرارتي «لا أميستاد» وحياه:

- أهلًا.

ظل بعض من طعم العصارة في فم خوستينو وود كثيرًا أن يبصقه في وجهه، لكنه أجابه:

- أهلًا.

دعاه رانولفو:

- ادخل.

- لا. شكرًا. أنا في عجلة من أمري.

ضرب رانولفو بعوضة تقرص جبهته وسأله:

- كيف أخدمك؟

تمهل خوستينو في إجابته. لم يود أن يلاحظ «لا أميستاد» أنه قد كشف كذبته.

- اسمع يا رانولفو.. هل قلت إنك قد رأيت الـ«غجري» مع المرحومة؟

ابتلع رانولفو لعابه بتوتر.

- أجل. ألم أتحدث معك بالفعل عن كيف حدث الأمر؟

حرك خوستينو ذقنه وكأنه يقول: «آه. فعلًا. أنا أتذكر» وحرك رانولفو هو الآخر ذقنه وكأنه يقول: «آه. إنه يتذكر».

سأله خوستينو:

- ما الملابس التي ارتدتها الفتاة؟

تجمد رانولفو. لم يفكر في أن أحدًا قد يوجه له هذا السؤال. اضطر إلى ارتجال الإجابة:

- لم أر الأمر جيدًا. كانت الأجواء مظلمة جدًا.

صمت خوستينو بضع ثوان، ثم استفسر:

- ألم تُلاحظ ما إذا كان قميصها ممزقًا؟

مجددًا، تمعن رانولفو في إجابته فالتلعثم والتناقضات أمور لن يُسمح بها.

أكد:

- أجل. لقد تمزقت مع الشد والجذب.

دمدم خوستينو:

- آه. يا سلام!

سأل «لا أميستاد»:

- ولِمَ كل هذه الأسئلة؟

هز المفوض رأسه:

- لمجرد السؤال.

أشار رانولفو إلي داخل بيته.

- ألا ترغب فعلًا في الدخول. تعد زوجتي لحم الآيل المقدد.

تشمم خوستينو رائحة اللحم وهو يُطبخ على نار خفيفة، فانفتحت شهيته.

رد:

- لا. شكرًا.

وأضاف:

- لكن ستخدمني لو أهديتني بعضًا منه.

قال رانولفو قبل أن يدخل البيت:

- ولم لا!

تظاهر خوستينو بربط حذائه. انحنى وأخذ مقاس أثر قدم رانولفو والإجابة هي «لا». لم يكن هو أيضًا القاتل؛ فالمقاس شبر وإصبع. فكر: «اللعنة. هذا الوغد قدمه كطفل. لا بد أن مقاسه أربعة وعشرون ونصف».

عاد «لا أميستاد» ومعه اللحم المملح موضوعًا في حقيبة بلاستيكية وقدمه إلى المفوض.

قال خوستينو وهو يوازن الحقيبة:

- شكرًا. وزنه نحو كيلو.

ظل رانولفو واقفًا عند الباب منتظرًا أن يودعه الآخر. تمتم خوستينو:

- إلى لقاء آخر.

بينما يمضي، سمعه يقول من ورائه:

- أقسم لك أنهما كانا هما.

التفت خوستينو. لم يكن «لا أميستاد» قد تحرك من مكانه.

كرر رانولفو: «حقًا. لقد رأيتهما»، بنظرة مفعمة بالاقتناع إلى درجة أن خوستينو لم يُدرك في أي جانب تقف الحقيقة.

أكد له:

- أنا أصدقك.

رحل بعدئذٍ محاولًا تخيل ما الذي رآه «لا أميستاد» فعلًا في فجر ذلك الأحد.

الفصل الثاني عشر: الثلاثاء.

1

أشرقت شمس الثلاثاء تحت وطأة بغضاء الحر في صباح عابس كبقية الصباحات الأخرى. استيقظت أرملة كاستانيوس مبكرًا بسبب خنخنة الخنازير الغاضبة التي فركت أخطامها في سياج الزريبة للمطالبة بالطعام. لقد نسيَتْ من فرط قلقها على ابنها تقديم الطعام لها طيلة يومين. خرجت من بيتها وأخذت شوال بقايا الطعام التي جمعتها على مدار الأسبوع وألقتها إلى الحيوانات من فوق الألواح. انهمكت الخنازير في معركة حامية الوطيس من أجل البقايا. التهمتها سريعًا ووضعت أخطامها مجددًا عند سياج الحظيرة، فاضطرت الأرملة لإفراغ رزمة من بسكويت «ماري»، لانتهاء الخبز الناشف وقشور البطاطا.

قالت لها وهي تنفض يديها:

- لقد انتهينا.

لا يروقها أن تطلقها لترعى. اعتاد بقية سكان القرية على ترك خنازيرهم تتجول بحرية كي تتناول الطعام بمعرفتها، أما هي فلطالما نفرت من احتمالية أن تأكل حيواناتها الجيف أو الفضلات، فقد اضطروا إلى ثقب أمعاء قريبتها دولوريس لأنها تناولت شرائح لحم خنزير مصابة بالدودة الشريطية.

لم تكن الشمس قد اعتلت السماء بعد، لكن بدا أن حر هذا النهار سيكون

خانقًا. وضعت الأرملة قليلًا من الفاصولياء لتطهوها وجلست لتقشر بعض الثوم. فكرت في خيلاسيو، أكبر أبنائها. لم تره منذ عام. لقد حصل على «البطاقة الخضراء» وبات مقيمًا في كنساس حيث يعمل سائق جرار. خيلاسيو هو أفضل من يُمكنه تقديم النُصح إلى رامون لردعه عن ارتكاب حماقة مهاجمة «الغجري»، وتوضيح أنه على الأرجح من سيموت بعد هذا النزال. مع ذلك، فخيلاسيو موجود على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر منها، وهي سيشق عليها، مهما حاولت، أن تحتوي رغبات ابنها الأصغر.

بدأت الفاصولياء تغلي، فسكبت الأرملة الثوم المفروم في الطنجرة. جعلها بخار الطهي تتعرق أكثر. أخذت خرقة رطبة وبللت بها وجهها. ابتعدت عن الموقد وسارت نحو الجدار الذي يفصل غرفتها عن غرفة رامون. أبعدت الستارة لتنظر إلى ابنها النائم. شعرت بالفخر، رغم تخوفها مما هو آت: لقد جاء رد فعل رامون كرجل. على الأقل، لن يصبح رهينة لمخاوفه ولن يعاني من التصرف كجبان. تعرف الأرملة هذين الهمَّين جيدًا، إذ إن زوجها الراحل غراثيانو كاستانيوس حمل فوق كاهله طيلة حياته ذكرى مبهمة لتصرف جبان ارتكبه في شبابه. لم يحك لأحد قط ماهية ما حدث من شدة التمزق الداخلي الذي خلَّفته هذه الذكرى فيه، واكتفى فقط بقول إنه مستعد لاستبدال عشر سنوات من حياته للعودة إلى تلك اللحظة الشبحية التي تحول فيها إلى مجرد رعديد بسبب عجزه عن اتخاذ قرار. ومع أنه الوحيد الذي عرف ماهية ما حدث، فقد مات مثقلًا بحمل هذا التردد القديم.

توجهت الأرملة إلى الموقد وأطفأت شعلته. لقد توعكت من البخار الذي يغلي في الغرفة. يكفيها اضطرارها إلى تحمل حر الصيف. شعرت أنها وحيدة وحزينة ومن دون زوج، وبأن خمسة من أبنائها مبعثرون عبر العالم، وبأن سادسهم أسير لقرار قاتل، وكي تكتمل المصائب، فإن راكيل ريبيرا

أفضل صديقاتها قد انتقلت لتقيم في أغواسكالييتيس.

ودت أن توقظ رامون: أن تجعله يجلس إلى جوارها؛ أن تُلبي معه رغباتها التي يصعب كبحها في التحدث طيلة ساعات؛ أن تُروح رتابة معيشتها، وأن تجد متنفسًا من الهواء لوجودها المختنق بفعل الحر.

استندت إلى إفريز النافذة ورأت الشاحنة ذات الصندوق العالي التي تجمع عمال اليومية لتوصيلهم إلى حقول القطن في مزرعة «إل سالادو».

فكرت: «إنها السادسة والنصف».

أخذت كيس نقودها، ونظفت مجددًا وجهها المتشبع بالعرق وخرجت من المنزل في صمت لتذهب لشراء الحليب من بين بروديتيا نيغريتي.

2

استيقظ بعد ليلة نخرتها أحلامه كالسوس. شعر مرة تلو الأخرى بأديلا تتنفس إلى جواره، بل وميز بوضوح -في كل مرة فتح فيها عينيه مشدوهًا وسط الظلام- شعرها المصفف نحو الخلف، وجبينها المنحسر، وعينيها الفاتحتين، وجسدها الطويل والعاري. تبتسم أديلا. تداعبه وتهمس إليه. يتعانقان، فيتحسس رامون بشرتها الناعمة، ونهديها الوديعين، وبطنها المتملصة، وقوس جذعها الدامي، وجرحها اللزج بدمائه السائلة، قبل أن يثب مرعوبًا نحو طرف الفراش. بعدئذٍ، لا يرى النوم مجددًا إلا حين يتحقق من أن شبح أديلا قد اختفى بين الملاءات.

نهض وسمع من بعيد صوت الشاحنة التي تنقل عمال اليومية إلى «إل سالادو».

تمتم مرتبكًا:

- لا بد أنها نحو السابعة.

لقد استيقظ متأخرًا. بوجه عام، يفتح المتجر في الخامسة صباحًا. يصل عمال اليومية في تلك الساعة التي يتسلل فيها النور إلى الظلام، لشراء المرطبات والمقالي ورقائق الذرة والدونتس، وللتحدث برهة قبل التوجه إلى عملهم. لا يعود النشاط مجددًا إلى المتجر إلا نحو الثامنة صباحًا حينما تأتي بعض النساء لشراء متطلبات بيوتهن.

جلس إلى حافة حاشية الفراش. رغم استيائه من كثرة هذه الكوابيس، اكتشف شيئًا يربطه بصورة أكبر بأديلا: الحنين الحاد إلى لحظات لم يختبراها معًا. وقف ونظر إلى المرآة: لا يزال يرتدي القميص الذي أهداه له بدرو. عليه أن يُعيده إليه في أقرب وقت ممكن، لكيلا يظن ابن عمه أنه استولى عليه لنفسه. على الأرجح، يسافر بدرو مع بقية جامعي القطن نحو «إل سالادو»، لكن الأمر ليس مهمًا. يُمكنه أن يسلم القميص إلى غابرييلا.

شعر بأنه منهك إلى أقصى حد، وكأنه ظل يقطع قصب السكر طيلة ثلاث يوميات عمل مستمرة. أحرقته عضلاته وآلمته ساقاه. بدَّل القميص المستعار وارتدى آخر أزرق بدون أزرار ثمة ثقب في جانبه. توجه إلى المطبخ ووضع ثلاث ملاعق من الملح في كوب ماء. مضمض فمه وبصق ما تجرعه على الأرض الترابية. لقد أوصاه طبيب أسنان متجول بهذا الروتين اليومي كأفضل وسيلة للقضاء على رائحة الأنفاس التي تشبه الفأر الميت. نظر إلى غرفة أمه ورأى أنها ليست موجودة، فقرر أن يذهب سريعًا لإرجاع القميص والعودة في أسرع وقت ممكن للعمل في المتجر.

3

قرع الباب ثلاث مرات ولم يجبه أحد. في المرة الرابعة، ظهرت غابرييلا باوتيستا وتجاعيد الملاءات لا تزال منطبعة فوق وجنتيها. حياها رامون:

- أهلًا.

تفاجأت غابرييلا حين رأته، فرامون من قطع وعدًا بقتل الرجل الذي تعشقه ولم تجد تفسيرًا لما يفعله في بيتها في مثل هذا الوقت المبكر.

سألته بوجه شكس وطريقة عدائية:

- ما الأمر؟

مد رامون ذراعه وسلمها القميص.

- لقد أعاره بدرو إليَّ يوم الأحد وجئت لإعادته.

استقبلته غابرييلا متعجبة، فرامون عدوها بصورة ما، ولهذا سعت إلى قياس نواياه الحقيقية.

قالت بحسم:

- بدرو ليس موجودًا.

- أعرف هذا الأمر بالفعل.

- إذن.. ما الذي تريده؟ أنا مشغولة.

بدا له مزاج غابرييلا العكر غريبًا. ليس من عاداتها أن تكون فظة أو خشنة.

أجابها رامون وهو يفكر في أن مرد عدائيتها استيقاظها للتو:

- لا شيء. لا أود شيئًا.

لم ينتظر لكيلا يستمر في إزعاجها وودعها بعبارة: «أوصلي التحية إلى ابن عمي» وغادر مسرعًا.

تمتمت غابرييلا بحنق قبل أن تغلقُ الباب:

- اللعنة!

كانت مستاءة وغاضبة. لقد هزتها زيارة رامون. أخذت نفسًا لتهدأ، لكنها لم تتمكن من التخلص من عصفها الداخلي. لقد امتزج الحب مع الرغبة والشغف والمتعة والذنب في شعور واحد مهيمن: الفزع. الفزع من الظروف السخيفة، ومن انتقام أخرق مريع أساسه خلط الأمور ببعضها. الفزع من وضعها السري كعشيقة، ومن وضعها المؤكد كزوجة. الفزع من «الغجري»، وبدرو، ورامون، وبالأخص الفزع من نفسها. هذا هو أكثر ما أزعجها: خوفها من خوض مواجهة لإنقاذ الرجل الذي تعشقه من الموت. لا يرتبط الأمر فقط بإنقاذه من مجرد فتى صغير سترتعش يداه بالتأكيد وقت قتله، وإنما من قرية كاملة متعطشة لخلق جريمة خاطئة. ينبغي عليها أن تدافع عنه أمام نفس القوم الذين سيرجمونها لو تجرأت على قول الحقيقة، ولهذا فصمتها ضروري. عليها أن تصمت كي تنجو، لكنها ستكون نصف نجاة ينخرها ضعفها وترددها المتواضع.

أخذت كوبًا من الماء وسكبته فوق رأسها. اعتادت أن تفعل هذا في كل صباحات الصيف. إنه علاج جدتها لتخفيف الحر. انزلق الماء عبر شعرها المتشابك، مرطبًا جمجمتها ومؤخرة رقبتها. تذكرت جدتها في جلوسها فوق كرسي هزاز بساقيها الموبوءتين بالأورام، وهي تأسف بيأس على أمور كثيرة لم تتمكن من عيشها، ووفقًا لها لم يعد ثمة مجال للندم عليها.

لطالما قالت لغابرييلا:

- مكثت هنا يا بُنيتي وهذا الحر الملعون يشويني لأنني لم أتخيل قط أن المرء قد يموت فعلًا. لو علمت هذا الأمر سلفًا، لرحلت عن هنا منذ فترة، لكن الزمن هدني ولم أعد قادرة على العمل في أي مكان. أسوأ ما في الموضوع أنني لا أعثر على ناقل حركة ليُعيدني إلى الوراء.

اعتادت أن تضحك بعدئذٍ وتكرر عبارة: «ناقل حركة، ناقل حركة ملعون»، وهي تسخر من ساقيها الضامرتين وأورامها ذات البثور وحياتها التي خنقتها الشمس ونهشات الموت المؤلمة. الموت. ذات يوم، قبل يومها الأخير، همست الجدة في أذن حفيدتها: «لا أود أن أموت». دفنوها في اليوم التالي. تعهدت غابرييلا بألا تكرر وجود جدتها التافه. ستفعل ما يحلو لها في حياتها. لكن الأمور لم تسر بهذه الطريقة لأنها -كما حدث مع جدتها- ظلت مدفونة في التراب، وهي تبحث دون جدوى عن ناقل الحركة الذي يسمح لها بالرجوع في الزمن إلى الوراء.

سكبت مجددًا كوبًا من الماء فوق رأسها، وآخر ثم آخر، إلى أن تبللت بالكامل. أغلقت الستائر وتعرت ودخلت الفراش وشغلت الراديو. ظلت تستمع إلى الموسيقى الاستوائية لبرهة حتى سمعت ضوضاء محرك شاحنة تقترب من القرية عبر الطريق الآتي من عند السد.

فكرت:

- إنه هو. لا بد أن يكون هو.

ارتدت فستانًا بسرعة وركضت نحو الباب. ستقفز لاعتراض طريقه، بمجرد رؤيته، وستركب الشاحنة معه وتطلب منه أن يهربا معًا. ستنقذ حياته هكذا، وبالمرة ستنقذ حياتها هي أيضًا.

ظلت مترقبة بضع دقائق، بحنجرة جافة وهي تحدق بعينيها في الطريق. انخفضت معنوياتها لما رأت أن من يصل ليس «الغجري»، وإنما شاحنتان لونهما أزرق رصاصي تتقدمان بسرعة وهما ترفعان التراب وراءهما.

4

قالت برودينثيا نيغريتي:

- لقد أضربت الأبقار. أدرت حليبًا قليلًا جدًا اليوم.

ابتسمت أستريد مونخي وآنيتا نوبوا غصبًا أمام هذه الدعابة، فالعجوز نيغريتي، وليعلم الكل، امرأة متقلبة تشتهر بالتعصب إثر تفاصيل صغيرة، لكنها مع ذلك استيقظت في ذلك اليوم بمزاج رائق.

- بيعي لي حتى ولو خمسة لترات.

طلبت أستريد منها الأمر لأن أمها تستخدم الحليب لصناعة جبن الـ«بانيلا» لتبيعه لاحقًا للإنجيليين في أرض مشاع باستوريس.

قالت برودينثيا:

- لم يعد لديَّ حليب. القليل الذي كان موجودًا منه أخذته شاحنة «نستله».

ما قالته صحيح، فقد وصل مشتري «نستله» مبكرًا وأخذ الاثني عشر لترًا التي حلبتها المرأة من أبقارها الخمس.

أشارت آنيتا بتحفظ إلى أستريد نحو قسط ينضح بالحليب، فاستفسرت أستريد:

- وماذا عن الحليب الموجود هنا؟

التفتت برودينثيا لتنظر إلى الوعاء وابتسمت وقالت:

- لا يصلح. إنه حليب متخثر من بهيمة مصابة بعدوى. سأهديه لكِ لو أنها رغبتك.

ثم تقدمت بمشيتها الكسيحة وأخرجت عبوة زجاجية من درج كومود:

- لديَّ ربع القشدة هذا. هل تودينه؟

رفضت أستريد برأسها، لكن آنيتا أخذت العبوة وقالت:

- أنا سآخذه. كم ثمنه؟

أجرت برودينثيا حسابها بأصابع يدها اليسرى وأجابت:

- ثلاثة آلاف بيزو.

ثم واصلت حديثها وهي توجهه إلى أستريد:

- أنتِ تعرفين أنني يمكنني أن أحجز لكِ الحليب. ليس عليكِ سوى أن تدفعي لي ثمنه مقدمًا.

قالت أستريد وهي تمد إليها يدها بورقة قيمتها عشرون ألف بيزو:

- حسنًا. احتفظي لي بعشرة لترات.

قالت برودينثيا:

- انتظري لأرى إن كان معي فكة.

ودخلت بيتها بحثًا عنها.

سمعت آنيتا وأستريد عبارة «صباح الخير» ولما التفتتا وجدتا أمامهما

أرملة كاستانيوس تصل لشراء الحليب. ظهر على المرأة أنها مكروبة. سألت:

- وبرودينثيا؟

أجابتها آنيتا:

- لن تتأخر.

ساد الصمت. ود ثلاثتهن تجنب الحديث عن الموضوع الإجباري. الأرملة بسبب الغم الذي يُثيره في داخلها، وأستريد لكيلا تُظهر مؤشرات عن كثرة ما تعرفه عن الموضوع، وآنيتا لكيلا تتورط في شيء لا يعنيها.

خرجت برودينثيا ومعها ورقة العشرين ألف بيزو في يدها. قالت:

- ليس لدي فكة.

وتوقفت مرتبكة أمام الأرملة، كأنها أبصرت ظهورًا شبحيًا.

حيتها الأرملة:

- صباح الخير.

أجابتها برودينثيا:

- ما الأمر يا بانتشا؟

لم تعرف ما الذي يُمكنها أن تقوله بعدئذٍ.

- هل لديكِ حليب؟

- لا. لقد نفد.

خفضت الأرملة نظرتها وظلت حائرة. بدا وكأن نفاد الحليب أمر يُزعجها جدًا. ودت أستريد أن تكشف لها الحقيقة، لكنها لم تفعل الأمر. لقد قررت أن تتركها في سلام.

من مكان برودينثيا ميزت سيارتَي الشرطة الريفية وهما تقطعان الطريق بسرعة.

قالت:

- ها هي ذي الشرطة الريفية آتية.

التفتت الأرملة ورأت كيف توقفت السيارتان أمام بيت خوستينو تِييث.

5

ما إن سمع خوستينو انطفاء المحركات، حتى وجد كارميلو لوثانو يتجسس عليه من النافذة.

صرخ النقيب فيه:

- كيف حال الحيوان صاحب الأظافر؟

مال خوستينو بظهره بتكاسل من مكانه فوق المقعد الذي جلس عليه ليتناول إفطاره، وأجابه من دون رغبة حقيقية، بعد أن مل من الطريقة القديمة لتحيته مع لوثانو:

- الحال كما تراها هنا يا صاحب الحوافر!

سأله كارميلو:

- ألن تدعوني إلى الدخول؟

مد خوستينو ذراعيه وأجاب من دون أن ينظر إليه:

- وهل لديَّ خيار آخر؟

رفع النقيب إحدى ساقيه الطويلتين ووثب من مرة واحدة إلى البيت عبر النافذة.

احتج خوستينو:

- الباب موجود لهذا الأمر.

ابتسم كارميلو ساخرًا:

- أعرف بالفعل. الأمر وما فيه أنني أتذكر الليالي الساخنة التي اعتدت أن أزور فيها أختك.

لم يهتم خوستينو بمزحة الشرطي الخرقاء، لأنه ليس لديه شقيقات. جذب كارميلو مقعدًا وجلس أمام الطاولة.

- ما الذي ستقدمه إليَّ على الإفطار؟

لم يجبه خوستينو. اقتصر ما فعله على رفع غطاء حلة فيها ثلاث من أسماك الموجارة المقلية.

قال كارميلو:

- إنها جيدة لصنع شطيرة تاكو يا رفيقي. ناولني خبز التورتيًّا.

بدفعة بسيطة، وضع خوستينو سلة التورتيًّا أمام الشرطي. فتح كارميلو إحدى الأسماك، وشرع يزيل أشواكها بعناية. وضع اللحم فوق التورتيًّا وعصر فوقه ليمونة ورشه بالملح الخشن، ثم التهم كل هذا في أربع قضمات.

مع عدم الإسراف، تمكن النقيب من إعداد ثلاث شطائر تاكو أخرى، وطلب من خوستينو أن يهديه موزتين أخريين، بخلاف الموزتين اللتين تناولهما قبلئذٍ. لما فرغ من إفطاره، سأله ما إذا كان يعرف موعد بث مباراة البيسبول من تامبيكو.

أجابه خوستينو لمجرد الإجابة:

- في الثامنة مساء.

أنصت إليه باهتمام، ثم كرر عبارته: «في الثامنة مساء». نهض بعدئذٍ من على الطاولة وشكره على الإفطار.

- لا شكر على واجب.

هكذا أجابه خوستينو، وهو يعلم أن كارميلو لن يتأخر في ملاعبته باستبصاراته الشرطية.

نظف القائد بقايا زيت السمك الموجود فوق فمه بقطعة من الورق الصحي. شمر كُمي قميصه، ثم رفع رأسه وتنهد.

قال:

- أنا وأنت نعلم يا رفيقي أنك تعلم الكثير عما حدث هنا يوم الأحد. أنت تفهمني، صحيح؟

أجابه خوستينو مستاء:

- أنا لا أعرف أي شيء ملعون.

رفع كارميلو يديه عند جبينه وقال:

- من الأفضل أن أشرح قصدي.

ثم أبعد يديه عن رأسه ورسم منحنى بيضاويًا في الهواء:

- انظر يا صديقي. سأكون واضحًا. لو نما إلى علمي أن ثمة ميتًا آخر في القرية بسبب مسألة الفتاة الصغيرة المقتولة، فإن من أول سأنقض عليه سيكون أنت. مجرد خطأ واحد، وستجد نفسك في الحبس.

يحفظ خوستينو عن ظهر قلب أسلوب تهديدات كارميلو المصطنعة والمستفزة، ومع ذلك استمر في لعبته.

- انقض على من يفتعلون المشاكل. لماذا أنا؟

ارتسمت ابتسامة على وجه لوثانو.

- لأنك سمين وعجوز والإمساك بك أسهل بالنسبة إليّ. الآخرون يركضون أسرع منك. بخلاف هذا، ألا تقول إنك تمثل السلطة في هذا المكان؟

- بمعنى؟

- بمعنى من غيرك قد يتحمل المسؤولية؟

أخذ خوستينو الحجة:

- لهذا السبب تحديدًا، اتركني أصلح الأمور هنا بطريقتي. عد أنت بهدوء إلى مانتي، وسأبلغك لاحقًا بما ستؤول إليه الأمور.

أمسك كارميلو خوستينو من ذراعه وتظاهر بأنه سيوجه له لكمة خطافية في كبده، فتظاهر خوستينو بتفاديها.

قال النقيب:

- أنت لم تتغير يا رفيق. ما زلت عنيدًا كما أنت.

ثم أضاف:

- لا توجد مشكلة. لن أزعجك أكثر من هذا.

فتح كارميلو الباب ليخرج، فانطبعت حرارة دفقة الهواء الساخن على وجهه. غطى حاجبيه براحة يده ليحمي نفسه من الضوء المتوهج.

قال:

- يا له من حر قذر! اللعنة! قد تشوي دجاجًا بوهجه!

سار خوستينو في اتجاه الباب ورفع عينيه. ما من سحابة واحدة موجودة في السماء. خفض نظرته ووجد رجال كارميلو ينتظرون خروج رئيسهم والشمس تحرقهم وهم يرقدون فوق صندوق الشاحنتين. تأملهم خوستينو بأسى واضح.

قال ساخرًا:

- من يتعرضون للشوي هم صبيانك.

أجابه كارميلو بلا مبالاة:

- هذه هي مهمتهم.. أيضًا، كانوا في حاجة إلى التشمس نوعًا ما.

التفت في اتجاه مرؤوسيه، وبإشارة من سبابته نادى على أحدهم. قفز الرجل كأنه زنبرك، وتوقف أمام كارميلو:

- تحت أمرك يا سيادة النقيب.

تفحص كارميلو الشرطي من أعلى إلى أسفل:

- قل لي رقيب غارثيس، هل تحب البيسبول؟

- نعم يا سيدي.

بطقطقة من لسانه، دفع كارميلو خوستينو إلى الانتباه.

- هل سمعت؟ إنه يحب البيسبول.

أومأ خوستينو برأسه مستاء.

استمر كارميلو في توجيه أسئلته:

- ما هو فريقك المفضل، حضرة الرقيب؟

- أليخادوريس دي تامبيكو.

- هل لديهم لاعبون جيدون؟

- نعم يا سيدي.

- وما الذي تفعله حينما لا تتمكن من الذهاب إلى مبارياتهم؟

- أسمعها في الراديو.

- آها. يا سلام! هل سيلعبون اليوم؟

- نعم يا سيدي.

- في أي ساعة؟

- في السادسة مساء.

- في السادسة، لا في الثامنة؟

- بالفعل. في السادسة يا سيدي.

- هل أنت متأكد؟

- نعم يا سيدي.

- شكرًا حضرة الرقيب. يُمكنك أن تنصرف.

ابتعد الشرطي وصعد إلى الصندوق مجددًا. أنب كارميلو خوستينو:

- إما أنك كذاب أو أنك تعيش في القمر.

صوب خوستينو عبارته:

- أو أنني لا أحب البيسبول.

- إذن.. لماذا اخترعت مسألة أن المباراة ستُبث في الثامنة؟

رفع خوستينو كتفيه، فسأله النقيب ساخرًا:

- وتريد مني هكذا أن أثق فيك؟

- هكذا بالضبط.

وضع كارميلو ذراعه فوق ظهر خوستينو وحثه على مرافقته إلى السيارة.

- بمجرد أن يصبح الجو باردًا، سنهذب لاصطياد البط. اتفقنا؟

أجابه خوستينو:

- نعم.

ثمة مرات ذهبا فيها للصيد معًا على حساب الشرطة الريفية التي وفرت الذخيرة والبنادق قصيرة المواسير.

فتح كارميلو باب الشاحنة. أنزل زجاج النافذة وجلس في مقعده، وقال:

- سنلتقي لاحقًا يا رفيق، ولا تجعل هذا الأمر يتحول إلى مجزرة.

نزل الرقيب غارثيس من الصندوق وركب من الباب الآخر. توزعت بقية الشرطيين بين الشاحنتين.

- أبلغني حينما تتخذ قرارك بخصوص من قتل الفتاة. في تلك الأثناء، خذ حذرك من رامون، تحسبًا لأن يفقد عقله ويسعى للانتقام بصورة سيئة.

غادر النقيب مع رجاله. لم يعد ثمة مجال للشك عند خوستينو: كارميلو لوثانو قادر على شم الدم عن بُعد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثالث عشر:

مسدس درينغر ديفيز ذو الماسورتين عيار 25

1

اشترى يوم الأحد ليلًا دفعة مكونة من عشرين جهاز تسجيل محمول تفاوض عليها مع لورنثو ماركيث، المهرب، ومع حلول مساء الاثنين كان قد باع ثمانية عشر منها بمائتي ألف بيزو رغم أنه دفع خمسة وسبعين ألفًا فقط ليحصل عليها. اشترتها منه مجموعة من عمال الدرَّاسات بعد أن حصلوا في صباح ذلك الاثنين على عمولتهم من العمل في أكثر من تسعمائة هكتار مزروع من السورغم. وقف الحظ مع «الغجري» حين قابلهم وهم نصف سكارى ومحملون بالمال في تقاطع الطريق مع خط السكة الحديد. كانوا ينتظرون في مقصف مجاور إصلاح قاطرة القطار الذي ينقل آلاتهم الضخمة. كانت عملية بيع سهلة نسبيًا بالنسبة إلى «الغجري». احتاج الأمر فقط إلى أن يُقدِم أحدهم على شراء جهاز تسجيل واحد، كي يُقدِم كل واحد فيهم على نفس الأمر لكيلا يفقد تقديره أمام الآخرين.

في تلك الليلة، نام إلى جوار العمال في عربات النقل. أيقظه رجيج القاطرة لما استأنفت مسيرتها. هبط سريعًا وتأمل القطار وهو يبتعد في اتجاه الجنوب، نحو أباسولو. أشرقت الشمس، فسار نحو المقصف الذي يبدأ في تقديم خدماته في وقت مبكر. طلب قهوة بالحليب وبعض البيض المخفوق مع

اللحم المجفف. لقد كسب في ظرف يوم واحد أكثر من مليونَي بيزو، وهو مبلغ كاف ليقضي وقته في هدوء حتى نهاية الشهر، ولهذا قرر ألا يعمل طيلة أسبوع كامل على الأقل.

جلبت النادلة الإفطار له. إنها فتاة نحيفة ولطيفة ذات تقاسيم رقيقة وردفين مستديرين. لولا أنه مشغول في التفكير فيما سيفعله خلال الأيام المقبلة، لحاول أن يغويها، لكنه لم يعرها اهتمامه أصلًا.

لما بات معه كل هذا المال بين يديه، تغيرت خططه. كان قد فكر في المرور على المزارع المجاورة لكاساس، بل وزيارة لاس مينوناس حيث يروق بعض المينوناتيين[1] شراء بضائعه الإلكترونية وقطعة أو اثنتين من مجوهراته الزائفة، على أن يذهب بعدئذٍ إلى ثيوداد مانتي، وأن يتوقف للمتاجرة في القرى الواقعة على ضفتَي الطريق، قبل أن يعود من هناك إلى لوما غراندي في ظرف أسبوعين أو ثلاثة، لكن الآن بات لديه وقت زائد عن الحد ولم يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله أو أين عليه أن يذهب.

طلب بعضًا من لفائف الـ«كونشا» لغمسها في القهوة. قالت له الفتاة إنها نفدت، فاضطر إلى الرضا ببعض قطع كعك «وندر» بالزبدة. بدت له لذيذة، لكنها تفتتت بسهولة كلما غمسها في قدحه، فانتهى به المطاف وهو يأكلها بالملعقة.

أبعد القدح الفارغ واستند بكوعه إلى الطاولة وفكر في الطريق الذي يجب عليه أن يمضي فيه. قد يواصل التقدم نحو سوتو لا مارينا للصيد بضعة أيام في بحيرة «لا لاغونا مادري» أو قد يذهب إلى كاديريتا لحضور «روديو» أو مصارعة ثيران، أو يُمكنه الانطلاق مباشرة نحو تامبيكو لتحية بعض

(1) نسبة إلى طائفة المينوناتية المسيحية. (المترجم).

الأقارب والأصدقاء ولقاء عاهرة أو اثنتين في ماخور الشباب. بعد دراسة عدة خيارات، قرر أن يتوجه إلى لوس أثتيكاس.

لوس أثتيكاس أكثر القرى المجاورة إلى سد «لاس أنيماس» تطورًا. تعداد سكانها نحو أربعمائة نسمة، وهي القرية الوحيدة هناك التي تحظى بالكهرباء ومنشآت بمواد بناء، وكبائن هاتفية، وثلاثة شوارع مرصوفة ومحطة وقود. اختار «الغجري» لوس أثتيكاس لسببين رئيسيين: أولهما أن القرية تشهد دائمًا -حتى ولو بصورة متفرقة- صفقات كبيرة في بيع وشراء القطن يُمكنه أن يستثمر فيها ماله؛ وثانيهما وأكثرهما حسمًا أن هذا المكان لا يبعد سوى عشرين كيلومترًا عن لوما غراندي.

طلب الفاتورة، وسدد حساب إفطاره واشترى من أحد الصبية جريدة صفراء صغيرة تُنشر في سان فرناندو. تحدثت العناوين عن مداهمة شرطية لمجموعة مثليين من عبدة الشيطان في نويبو لاريدو وعن تجاوزات مسؤول محلي ومصاريفه الزائدة. تفقد «الغجري» الصفحات الأربع المطبوعة، ثم كورها وألقاها على الأرض.

فكر: «نفس الأمور الدائمة».

أخذ الطفل الجريدة الصفراء، وفرد أوراقها، وضعها إلى جوار بقية الصحف ليبيعها مجددًا.

2

في العاشرة صباحًا، كانوا قد استقروا في متجر رامون. جلس كل من توركواتو غاردونيو وباسكوال أورتيغا وماثيدونيو ماثيدو على مقاعد

معدنية مطلية بألوان شعار «بيبسي كولا» وهم يحتسون الجعة، وكلهم نهم للتعرف إلى مسار الأحداث، ولإجراء استقصاء مفصل حول الطريقة التي ينوي بها رامون القضاء على عدوه. بعد انتهاء الأحاديث التافهة المعتادة، قرر باسكوال أن يسأل رامون عن الأمر:

- هل فكرت في الطريقة التي ستقتله بها؟

أجابه رامون:

- لا.

نهض توركواتو من فوق مقعده ووقف إلى جواره وقال:

- إذن، فكر جيدًا، لأن «الغجري» لا يُمكن قتله هكذا، ببساطة.

تبقت عدة أسابيع على عودة «الغجري» إلى لوما غراندي، هذا لو أنه قرر أن يعود، إذ اعتاد أن يحضر إلى القرية في الجمعة الأولى من كل شهر، ما يعني تبقي وقت أكثر من كاف للتخطيط للجريمة، وهذا هو ما أوضحه ماثيدونيو له.

سأل توركواتو:

- وما الحال لو ظهر الآن؟ هل سنتركه يدرك الأمر وينفد بجلده حيًا وهو يلعب بذيله؟ لا يا سيدي. هذا الأمر يجب تحديده الآن. ينبغي على رامون أن يستعد قبل أن يعود ابن الساقطة هذا.

أقروا بأنه محق، ثم شرع أربعتهم يحبكون سيناريوهات متنوعة لتنفيذ عملية القتل، وهم يستبعدون هذا السيناريو وذاك: مباغتته بالرصاص في الأخاديد صعبة، ليس فقط لأن «الغجري» يمشي بحذر على الدوام، وإنما لأن ثمة حاجة إلى بندقية. لا يوجد سوى شخصين فقط لديهما بندقية في

لوما غراندي: أورنار كارّيو الذي قد تعمل بندقيته أحيانًا وفي مرات أخرى لا تعمل، ولهذا فإن استخدامها من أجل مهمة بهذا الحجم سيعني مخاطرة كبيرة، ورانولفو كيرارتي «لا أميستاد»، الذي لا يُقرض بندقيته المغلاقية عيار 16 إلى أحد. قتله بساطور ليس أمرًا ملائمًا أيضًا. سبق وضُرب «الغجري» في ظهره ولم يعد يسمح لأحد بأن يقترب منه وفي يده سلاح مثل هذا مسافةً تقل عن ثلاثة أمتار.

توصل أربعتهم، بعد استبعاد عدة بدائل إلى أن أفضل طريقة هي أن يقتله رامون بمسدس، لأنه في النهاية سلاح صغير ويسهل التحكم به. مع ذلك، ثمة نقطة وجب عليهم حلها: لقد نفذ الجيش مؤخرًا حملة مفاجئة وفعالة لتنظيف المنطقة من المسدسات. تمكن قليلون فقط من إخفاء مسدساتهم لتجنب مصادرتها، والوحيد الذي يُمكن الثقة فيه بينهم هو خوان بريتو، أفضل صديق لرامون. تبقى فقط معرفة ما إذا كان لديه خزانة، وبالأخص ما إذا كان يود أن يُقرضها.

3

خوان بريتو في نفس عمر رامون، لكنه يبدو أكبر سنًا. هاجر في الخامسة عشرة كأجير باليومية، لكن الحظ وقف بجانبه ووصل إلى بورتلاند، أوريغون، المدينة التي لم تشهد تقريبًا أي اعتقالات لمهاجرين غير شرعيين من قِبل شرطة الهجرة. حصل على وظيفة غاسل أطباق في مطعم صيني. بعد مرور أربعة أشهر، بدل وظيفته وأصبح عامل نظافة في حمامات شركة تأمين، قبل أن ينتقل مرة أخرى لغسيل الأطباق في ماخور اسمه «سوزيز بار»، تديره امرأة ضخمة الجثة تُغير صبغة شعرها كل أسبوع. لم يقض خوان

بريتو في هذا المكان سوى ثلاثة أشهر، لأن سوزان بلاكويل، المرأة السمينة، أبلغت سلطات الهجرة عنه لكيلا تضطر إلى دفع راتبه المتأخر إليه.

يتذكر خوان إلقاء القبض عليه ككابوس: دخل أربعة رجال، ثلاثة منهم في زي مدني وآخر في زي لا يعرفه، إلى الحانة ولما رأوه انقضوا عليه. أدرك خوان ماهية الأمر على الفور وحاول الفرار من بين الطاولات، إلا أن أحد مرتادي المكان عرقله فوقع خوان منبطحًا. بينما هو على الأرض، انهال الرجل صاحب الزي عليه بهراوة، فحاول خوان أن يحمي رأسه بذراعيه، إلا أنه فشل في تفادي إصابته بجرح في رأسه، وكسر في أحد ضلوعه، وتشظي عظم كوعه.

قيدوا يديه بالأغلال وربطوا ساقيه وكمموه وألقوه في صندوق سيارة، وعلى هذه الحال نقلوه، في رحلة استغرقت عدة ساعات، إلى منطقة سكنية لم يتعرف عليها. أنزلوه هناك لتسليمه إلى رجال آخرين يرتدون زيًا آخر. جعله هؤلاء يركب شاحنة مغلقة بعد أن فكوا وثاق قدميه وكمامته، لكنهم أبقوا على أغلال يده. بعدئذٍ، اقتادوه إلى بناية تقع في سان فرانسيسكو.

أفهمه أحد المترجمين وهو داخل مكتب ذي جدران زجاجية أنه معتقل بسبب إقامته غير القانونية في البلاد، ومقاومة السلطات وإهانتها والسرقة. جرى إبلاغه بأن المدعي العام سيسحب التهم لو وقع بعض الوثائق التي يتعهد فيها بعدم العودة أبدًا إلى الولايات المتحدة. وقع خوان على الوثائق وأخذوا بصماته وبياناته والتقطوا له ثلاث صور من أجل ملفه الشرطي. بعد مرور خمسة أيام، رحلوه في شاحنة مغلقة أخرى إلى تيخوانا.

لما وصل إلى تيخوانا، أخبره عمال يومية آخرون أن ترحيله السريع مسألة تقليدية ضمن وشايات أرباب العمل المستغلين، فبلاغات السرقة الزائفة شائعة في مثل هذه الحالات. من فرط غضبه عقب تعرضه لهذه المكيدة،

بحث خوان عن طريقة للعودة إلى بورتلاند والثأر من المرأة السمينة، وبالمرة استعادة أغراضه من النزل الذي أقام فيه.

عبَر مرة أخرى إلى الجانب الأمريكي، مختبئًا بين بضائع شاحنة نقل كبيرة. حصل في سان دييغو على المال عبر النشل وسرقة ساعة بحار برتغالي وجده ممدًا وثملًا تمامًا فوق أحد الأرصفة. نجح هكذا في دفع ثمن تذكرة حافلة «غرايهاوند» نحو ساكرامنتو. استغرق منه الأمر شهرين كي يتمكن من الذهاب من هناك إلى بورتلاند.

نجح في استعادة كل أغراضه في بورتلاند، بما فيها ثمانمائة دولار تمكن من ادخارها وأخفاها بين ثنايا خياطة الطرف السفلي لأحد البنطلونات. لقد أعادها إليه بكل لطف المسؤول عن النزل، وهو رجل عجوز أسمر البشرة مدمن على الكحوليات دارت ذكريات مجده عن العصر الذي كان فيه عازف الغيتار في الفرقة الأولى لـ«بي بي كينغ».

في ذات المساء، كرَّس خوان كل وقته لترصد خروج سوزان بلاكويل من الحانة. اعتادت المرأة أن تغادر الحانة في الرابعة صباحًا، بعد الإغلاق ومعرفة حساب صندوق الصرافة. لم تغير موعدها في ذلك الفجر. كانت تركب سيارتها، لما باغتها خوان بضربة بعصا فوق رأسها، تلتها ضربات أخرى أكثر.

انهارت المرأة السمينة فوق الأرض المرصوفة، بشعرها الأخضر الذي اختلط بحمرة الدم. أمسك خوان، الذي ظنها ماتت، حقيبتها وركض مسرعًا عبر شوارع المدينة.

عاد إلى المكسيك والخوف يملؤه، نادمًا على العنف الذي تصرف به. اشترى في طريقه مسدسًا صغيرًا عرضوه عليه في محطة الحافلات. إنه مسدس

«درينغر ديفيز» عيار 25 المزود بماسورتين. دفع مقابله خمسين دولارًا. ألصقه داخل بطانة قبعته الـ«سومبريرو» بشريط لاصق، وهو على أهبة الاستعداد لاستخدامه ضد أول شرطي يحاول إيقافه. لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك، فعبر تغيير الطرق وصل بهدوء إلى حدود إيغل باس مع بييدراس نيغراس، حيث عبر النهر على متن إطار جرار منفوخ.

عاد إلى لوما غراندي بعد عام من رحيله. لم يبق ليكمل معيشته في القرية بسبب خوفه الدائم من قدوم دورية أمريكية لاعتقاله. أنشأ لنفسه كوخًا إلى جوار سد «لاس آنيماس»، حيث اعتنى بزورقَي وعدَّة صيد لوثيو وبدرو إسترادا.

4

صَف الشاحنة إلى جوار مضخة الوقود وسلم العامل مفتاح الخزان.

طلب منه:

- ضع من بنزين «نوفا» بأربعة آلاف بيزو.

ترجل من الشاحنة وتوجه إلى المتجر الواقع إلى جوار محطة البنزين. اشترى عبوة من جعة «موديلو» واستند إلى المبرد ليتجرعها. لقد أرهقه الذهاب إلى لوس أتيكاس وسط حر الظهيرة في الطريق الذي اجتاحته الشاحنات الضخمة. شرب الجعة وهو يستمتع بفقاقيع الرغوة في حنجرته. أشار إليه العامل لإبلاغه بأنه انتهى من ملء الخزان، فتجرع «الغجري» آخر ما في عبوته، وسدد حسابه وعاد إلى الشاحنة.

شعر برغبة في الاستحمام أسفل الدش ونوم القيلولة. يعرف في القرية

بيتًا للضيافة اسمه نزل « لوس ألباتروس» اعتاد أن يقيم فيه. مقابل خمسة وثلاثين ألف بيزو، يمكنه أن يحصل فيه على غرفة ذات فراش كبير وحمام خاص ومروحة أرضية مع الإفطار والعشاء. تدير النزل مالكته لا تشاتا فرناندث -وهي امرأة يقظة ومبتهجة- مع ابنتها المراهقة مارغريتا، وهي فتاة بشوشة ومفعمة بالحياة. تروق «الغجري» الإقامة في «لوس ألباتروس»؛ لا فقط بسبب الخدمة الجيدة، وإنما لأن الأم وابنتها تجيدان فن الكلام ومطلعتان على آخر المستجدات عبر الزبائن الذين يبيتون لديهما. فكر في أنه قد ينجح عبرهما في معرفة ما إذا كانت لوما غراندي قد شهدت وقوع حدث غير مألوف، وبالمثل ما إذا كانوا قد عرفوا هوية من أبهرهما بضوئه في صباح الأحد، وهل طرأت تبعات ما عن هذه المسألة.

يقع النزل في بيت كبير من طابق واحد يضم ست غرف مجهزة حول صالة مشتركة. غرفة الطعام والمطبخ في مكان منفصل تمامًا عن البناية. صممته لا تشاتا فرناندث بهذه الطريقة مع شريكتها القديمة سيلبيا إسبينوسا التي تركت العمل للزواج من عميل سفريات إسباني. بفضل صداقته مع لا تشاتا، تمكن «الغجري» من اختيار غرفته المفضلة، الواقعة في الوسط، وذلك لأنها شمالية وأنعش الغرف الموجودة.

على الرغم من حر العصر الذي قد يصيب المرء بالجنون، إلا أنه تحمم بماء ساخن.

لقد فكر: «الحر يقتل الحر».

خرج من الحمام والمنشفة ملفوفة حول وسطه. فتح النافذة وأغلق الناموسية. ظهر صرصار تحت الستارة وحاول أن يختفي خلف المكتب، لكن «الغجري» منعه بدهسه بقدمه الحافية. طقطق الصرصار تحت وطء الدهسة، ثم جلس «الغجري» إلى حافة الفراش ونظف قدمه. خلع المنشفة،

وضعها فوق الوسادة لكيلا يُبللها بشعره الذي لم ينشف بعد، ثم رقد ونام.

استيقظ ونظر إلى ساعته: إنها السابعة والربع. يُقدم العشاء في النزل في الساعة السابعة والنصف بالضبط. تعجل في ارتداء ملابسه. لقد أخبرته مارغريتا بمحتوى قائمة الطعام سلفًا: حساء الأكامايا[1]، الأرز بالطريقة المكسيكية، ولسان بصلصلة الطماطم، ولهذا لم يكن مستعدًا لتفويت كل هذا.

لما دخل غرفة الطعام، كان أغلب النزلاء قد جلسوا فعلًا إلى الطاولة. يعرف بعضهم: كارلوس غوتييريث، المهندس المائي المسؤول عن الإشراف على أنظمة الري في المنطقة؛ وفيليبي فييرّو المهندس المدني المسؤول عن قيادة أعمال إعادة رصف الغطاء الأسفلتي للطريق من إل آبرا إلى لوس أتيكاس، وخابيير بيلمونت، طبيب الأسنان الذي تقاعد ليتخصص في تجارة القطن. بالنسبة إلى بقية من جلسوا إلى الطولة وهم زوج من العجائز وامرأة قصيرة مكتنزة تعاني من الهالات السوداء، فلم ير أيًا منهم قبلئذٍ قط.

حين انتهى العشاء، لم يجلس لتناول الحلوى سوى مارغريتا، ولا تشاتا، وفيليبي فييرو و«الغجري». سأل «الغجري» لا تشاتا بترقب عن آخر المستجدات، فاستندت المرأة بكوعها إلى المفرش وقدمت أهم الأخبار، فيما تصحح لها ابنتها معلوماتها أحيانًا وهي تغسل الأطباق في المطبخ: اكتشاف حقل مارايغوانا في نويبو موراليس. بيع حقول الأرز التي تمتلكها النقابة إلى أحد النواب. فوز أحد أعضاء مجلس الأرض المشاع المنتفعين من «خطة آيالا» بعشرة ملايين بيزو من حملة ترويجية على أغطية «بيبسي كولا». تعرض بعض السياح لعملية سطو في غونثالث. رد الحاكم على خطاب أرسله إليه أحد مُزارعي أرض مشاع نينيوس إيرويس. إصابة دواب مزرعة «لا بالوما»

(1) نوع من القشريات يشبه الجمبري نوعًا ما وموجود في المكسيك. (المترجم).

بعدوى الدودة اللولبية. حين وجد «الغجري» أنها لم تأت على ذكر شيء يهمه، سأل:

- ولوما غراندي؟ هل من جديد؟

تمهلت لا تشاتا بضع ثوان ورفعت شفة فوق تلك الأخرى ثم نفت برأسها:

- لم يحدث شيء جدير بأن أتذكره.

خرجت مارغريتا من المطبخ وهي تجفف أحد الأطباق واستندت إلى إطار الباب، ثم قالت وهي تقيس كلماتها:

- أظن أن فتاة قد تعرضت للقتل يوم الأحد في لوما غراندي.

شعر «الغجري» بثقب ينفتح في رئتيه. حاول أن يسيطر على توتره وسأل بصوت متهدج:

- كيف تعرفين أمرًا كهذا؟

- لقد حدثني عنه دولثينيو سوسا صباح اليوم، حين ذهبت إلى السوق لشراء الأكامايا.

سأل «الغجري» وهو يأمل أن تنطق مارغريتا اسمًا آخر غير الذي يظنه:

- وهل قال لكِ اسم الميتة؟

- نعم، لكنني نسيته.

ابتلع «الغجري» لعابه.

- غابرييلا؟

ظلت الفتاة تفكر بضع ثوان ثم أجابت مؤكدة:

- فعلًا. قِيل لي إن هذا اسمها.

لما رأت لا تشاتا أن وجه «الغجري» يشحب، سألته:

- هل تعرفها؟

حرك «الغجري» رأسه في إيماءة بسيطة وأجاب وقطرة عرق تنساب فوق مؤخرة رقبته لتنزلق على ظهره:

- شكلًا.. إنها امرأة تشتري مني بعض البضائع التافهة.

5

تأهب خوان بريتو، لما سمع الأصوات القادمة من منعطف الطريق. إن وجود الغرباء بالقرب من المرفأ أمر يوتره ويجعله يظن دائمًا أن رجال شرطة أمريكيين جاؤوا لإلقاء القبض عليه. تعرف على صوت رامون ومن بعده صوت توركواتو، فخرج من وراء الشجرة التي اختبأ ورائها.

حياهما:

- كيف الحال؟

تمتم رامون وكل واحد من الموجودين معه بعبارة مختلفة. حلَّق واحد من طيور الغرة مفزوعًا من بين نباتات العليق الموجودة عند ضفة السد وتوقف بعدئذٍ بعدة أمتار تاركًا وراءه مجرى اتخذ صورة سهم فوق الماء الساكن. انعكست أشعة الشمس فوق قشور السمك الملقاة حول الزوارق المزودة بمحركات.

أشار خوان إلى شبكة كبيرة وسأل:

- هلا قدمتم إليَّ مساعدتكم؟ عليَّ أن أفردها.

ربطوا الشبكة بعدة أعمدة. كان طولها نحو مائة متر. ظهر فيها عدد كبير من الأجزاء المقطوعة والممزقة التي وجب على خوان أن يُصلحها بعقدها بنسيج الجوت[1]، وهي مهمة ستستغرق النهار كله.

لما فرغوا من ربطها، ساروا نحو بعض الصخور. فوق إحداها، وجدوا صدَفة سلحفاة مقلوبة نحو الأعلى وثمة بقايا تتعفن داخلها. حاول ماثيدونيو ماثيدو أن يركلها ليجلس، لكن خوان أوقفه:

- لا تركلها. أنا أتركها لتجف لأنني أرغب في الاحتفاظ بالصدفة.

اعترض ماثيدونيو:

- رائحة أمها سيئة جدًا.[2]

أمسك توركواتو بالصدفة وفحصها ثم قال:

- لم تعد لها فائدة. إنها مشروخة.

طلب خوان:

- إذن، تخلص منها.

---

(1) الجوت نبات ينمو بصورة أساسية في المناطق الاستوائية والحارة ويُزرع بشكل أساسي للحصول على أليافه التي تُستخدم في صناعة عدد من المنتجات مثل الحبال والأحذية والحقائب والأقمشة الخشنة وغيرها. (المترجم).

(2) وردت في النص الإسباني "Huele a madres"، أي مع ذكر الأم أو الأمهات في ذلك التعبير باللغة الدارجة المكسيكية. ترجمت العبارة بهذه الصورة للحفاظ على نبرة ومستوى لغة الشخصية في النص العربي، والتكوين المجتمعي لها الذي لا ينفصل عن اللغة التي تستخدمها. (المترجم).

اقترح باسكوال:

- في المرة المقبلة ضع ملحًا أو رمادًا عليها، بهذه الطريقة لن تتعفن أو تُدود.

أضاف توركواتو:

- أو اكشط اللحم منها.

جلس خمستهم فوق الأحجار. ألقى رامون تعليقًا حول الكمية الكبيرة من أسماك البلطي التي اصطادوها في الشهر الماضي. سأله ماثيدونيو ما إذا كان لديه بعضها ليشووها على الغداء، فأجابه خوان:

- لا، لكن الآن سأخرج بعضها من الشبكة.

نهض وخلع قميصه وطلب من رامون أن يأتي ليرافقه.

قال توركواتو:

- في تلك الأثناء سنشعل نحن النيران.

سار خوان ورامون إلى حافة السد. خلعا حذاءيهما وشمرا بنطلونيهما لكيلا يتبللا. أمسك خوان بالشبكة ورامون بدلو من الصفيح. توغلا معًا داخل الماء وتواثبت عشرات الضفادع مع تقدمهم لتغطس في الطمي.

ألقى خوان الشبكة وترك حديدها يغطس ثم رفعها. لم يظهر شيء في نسيجها. قال وهو يلقيها مجددًا:

- حظنا قليل.

في تلك اللحظة، ارتفعت بجعة بالقدر المناسب وغطست بسرعة على بعد عدة أمتار.

اقترح خوان:

- أسماك الموجارة هناك، تعال لندخل عندها.

تقدما إلى نقطة وصل فيها الماء إلى ركبتيهما.

- سنصطاد هنا بعضها.

ظلا صامتين. ألقى خوان الشبكة من جديد من دون نتيجة.

اقترح رامون:

- علينا أن نتعمق أكثر.

قطعا عشرين خطوة، إلى أن تبلل خصر كل منهما. ألقى خوان الشبكة ولما جذبها شعر بثقل فيها. قال:

- ها نحن أولاء.

رفع نسيج الشبكة ووجد ثلاثًا من أسماك البلطي تهز ذيلها بعنف.

تمتم خوان وهو يمسك بإحدى الأسماك من خياشيمها ليخرجها من الشبكة:

- سمعت بمسألة خليلتك. إنه أمر فظيع.

بدا لرامون أن الاستمرار في كذبة العلاقة الرومانسية أمام صديقه أمر مخجل، وأنه ينبغي عليه أن يعترف له بأن ارتباطه العاطفي بها بدأ يوم مقتلها، لكنه لم يفعل ذلك، إذ عجز عن خيانة المرأة التي أورثته حبًّا مُشفرًا في رسائل مُلغزة، كما أنه بالأخص لم يمكنه خيانة الحب الذي شعر به تجاه الجسد العاري والفاتر الذي حمله بين ذراعيه؛ وتجاه الفتاة التي لها صورة بالأبيض والأسود يظهر فيها من الجانبين ثلاثة أرباع نصفها العلوي؛ وبالمثل

حبه تجاه ذلك الغياب الذي يتفرع داخله. كان كشف الحقيقة لخوان سيعني وجود فرصة للتحرر من الالتزام المنهك بقتل رجل آخر ووجود طريق أخير للفرار، لكنه قرر أن يسد هذا الطريق، إذ أمن على كلامه:

- أجل. إنها مسألة فظيعة.

أفلت خوان سمكة بلطي من الشبكة وألقاها في الدلو الذي يحمله رامون:

- قال لي بدرو إنك تفكر في أن تثأر لنفسك.

- لهذا أحتاج منك أن تُعيرني مسدسك.

حرر خوان سمكة أخرى من الشبكة ووضعها في الدلو. لو أنه شخص آخر، لما أعاره مسدسه، خاصة في ظل تيقنه من أنه سيُستخدم لقتل شخص ما، لكن لأن رامون صديقه منذ الطفولة، عجز عن الرفض.

قال من دون أن يلتفت لرؤيته:

- بالطبع يا رجل. بمجرد أن ننتهي، سأعطيه لك.

اصطادا سبع أسماك أخرى. خرجا من السد وعثرا على توركواتو وهو يقرفص محاولًا إشعال النيران في الحطب الرطب، وإلى جواره وجدا ماثيدونيو وهو ينفث الهواء من فمه لتأجيج الشعلة. سلم خوان السمك إلى باسكوال لينظفه، ريثما يذهبان لجلب السلاح.

دخلا إلى الغرفة وتوجه خوان إلى ركن يوجد فيه جوال حبوب ذرة. نبش داخله وقلّب الحبوب بأصابعه إلى أن عثر على مسدس «درينغر». نفخ جانبي مقبض المسدس لتنظيفهما من التراب والقشور، ثم سار إلى وسط الغرفة وأخرج أربع رصاصات مخبأة في عارضة خشبية.

قال:

- إنها الوحيدة الموجودة لديّ.

فتح المسدس، ووضع طلقتين في المغلاق، ثم أغلق السلاح مجددًا وسلمه إلى رامون وقال وهو يشير إلى الزناد:

- إنه جاهز. لا يحتوي على مزلاق أمان. تطلق به بمجرد الضغط على الزناد.

بدا السلاح لرامون وهو في يده كلعبة، كحال الطلقات ذات الغطاء الذهبي، فسأل وهو عاجز عن التصديق:

- هل فعلًا يُمكنك أن تقتل شخصًا بهذا الشيء الصغير الملعون؟

- لو صوبت جيدًا، فنعم.. لو لم تصوب جيدًا، فلا.

وضع رامون إصبعه فوق الزناد وصوب المسدس نحو هدف لا وجود له.

منعه خوان:

- خذ حذرك وإلا قد تطلق رصاصة بطريق الخطأ.

أفرغ رامون المسدس من الرصاص، ورفعه مجددًا والتفت ببطء نحو خوان. ركز مرمى التصويب عند صدره وضغط الزناد.

علق خوان حين سمع صوت الطقطقة:

- الأمر ليس سهلًا جدًا.

- أي أمر؟

- أن تقتل أحدًا.

رفع رامون كتفيه، فواصل خوان حديثه:

- أسوأ شيء أن تعجز عن إخراج قتيلك من رأسك.

تنهد بعدئذ وهو لا يزال واقعًا تحت خدر ذكرى الأمريكية السمينة الغارقة في دمائها التي حطم رأسها بالعصا.

من دون أن ينطق بكلمة واحدة، أنزل رامون المسدس الذي كان قد أمسكه في وضعية التصويب، فسأله خوان:

- هل تعرف ما الذي تورط نفسك فيه؟

- لا.

هكذا، أجابه رامون بجفاء وهو يضع مسدس «درينغر ديفيز» والطلقات عيار 25 في الجيب الأيمن لبنطلونه.

6

استيقظ مُبحرًا في عرق غزير، وثمة كوابيس متكررة تخنقه: غابرييلا وهي مقطعة إلى أشلاء؛ غابرييلا تلتهمها الديدان؛ غابرييلا وهي ميتة؛ غابرييلا وهي ضائعة إلى الأبد.

رفس الملاءات بقدميه وأضاء المصباح الموجود على الطاولة الجانبية. فرك عينيه اللتين آذاهما الضوء الأصفر الخافت، ثم نهض ونظر من النافذة إلى الليل الذي لا قمر له. سمع على الجانب الآخر من الناموسية وقيق الخفافيش الحاد وهي تصطاد الحشرات.

ود أن يدخن، فأخذ حقيبته ووضعها فوق الفراش. فتحها ليبحث عن علبة السجائر. ظل يقلب فيها رغم علمه أنه لن يعثر عليها، لأنه توقف عن التدخين منذ عشرة أشهر.

أغلق «الغجري» الحقيبة وارتدى بنطلونًا وقميصًا وأغلق الناموسية السلكية وقفز نحو الحديقة. شعر بأكلان العشب النامي أسفل قدميه الحافيتين. ميز وسط الظلال المشعشعة دربًا من البلاط يحوط الغرف ويقود إلى الشارع. مضى فيه حتى اصطدم بالسياج. تواثب علجوم إلى جواره، فنحاه جانبًا بكعبه، فمضى العلجوم في طريقه من بين صف الأصص.

رفع مزلاج البُويب، محاولًا ألا يتسبب في أي ضوضاء، ثم خرج وانطلق يمشي في اتجاه المنطقة المضيئة من القرية، آملًا أن يعثر على شخص ما يُهديه سيجارة. لما وصل، لم يعثر على أحد. توجه إلى الميدان. كان خاويًا. جلس إلى مقعد عمومي ليتأمل العث وهو يحلق حول أعمدة الإنارة. لقد قال رئيس مجلس البلدية له إن كل قرى المنطقة ستحصل قريبًا على الإضاءة الكهربائية. لم يصدقه، لأنه لا يصدق الساسة والنساء. لم يصدق غابرييلا باوتيستا حين أخبرته أنها تعشقه وأنها مستعدة للتخلي عن كل شيء من أجله. لم يصدقها حتى الآن.

بدأ يتجول في الميدان. أزعجه ضجيج مولد الكهرباء وهو يقطع صمت الليل، لأنه أحب هذا الصمت والتفكير في غابرييلا واستدعاء صورتها. تذكر ذلك الصباح من شهر أغسطس، حين تطارحا الغرام في الجزء الخلفي من شاحنته المصفوفة على جانب طريق مرصوف بالبلاط. تذكر الأفق الرمادي وهو يرتسم فوق خضرة المزروعات، والأمطار وهي تتساقط رذاذًا فوق المظلة. تذكر نظرتها، وعينيها العميقتين، وجلدها اللامع، وساقيها وهما تحوطانه، ورطوبتها. تذكر ليلته الأخيرة معها، المضايقة التي تعرضا لها بالكشاف، ركضهما بين الأجمات، وخصوصيتهما المنتهكة، وانكشاف سرهما، وغرامهما الأخير. تخيل غابرييلا وهي ميتة وود أن يذهب ليُضرم النيران في لوما غراندي، فقط كي يضرم النيران بعدئذٍ في نفسه.

عاد حين بدأت أفراخ البلشون طيرانها الصباحي نحو حقول الأرز. انبلج الصبح. دخل غرفته عبر النافذة. تعرى بالكامل. بدا له أن الحر في ذلك التوقيت لا يزال لا يطاق، بل وبشكل أكبر. رقد فوق الفراش وظل هكذا فوق ظهره ونظرته ثابتة فوق ريش المروحة الأرضية التي تلف إلى جواره.

بزغ من غرفته لما تقدم النهار. كان قد أخذ دشًا وارتدى ملابسه بتكاسل وهو أسير إرهاق غريب. عثر في غرفة الطعام على العجوزين اللذين لم يعرفهما. حياهما وظل واقفًا دون معرفة في أي واحد من المقاعد التسع عليه أن يجلس. خرجت لا تشاتا من المطبخ وهي تحمل حلة يتصاعد منها الدخان وضعتها فوق المائدة.

- أهلًا.

- أهلًا.

- هل التصقت بك الأغطية؟

- نوعًا ما.

- هل تود بعض الفاصولياء؟

أجابها «الغجري» وهو يجلس من دون رغبة إلى المقعد الموجود أمامه:

- نعم.

غرفت لا تشاتا الطعام له. لم تر «الغجري» قبلئذٍ وهو مكروب بمثل هذه الصورة.

أنهى العجوزان إفطارهما وانسحبا. بدأ «الغجري» يتناول طبق الفاصولياء ببطء.

قالت له لا تشاتا وهي تبتسم:

- توقف عن المعاناة.

التفت «الغجري» لينظر إليها، مرتبكًا، من تصرف المرأة التي بدت كأنها تسخر منه، وسألها بعدائية:

- المعاناة من أي شيء؟

ابتسمت لا تشاتا مجددًا. كورت قطعة من الخبز وألقتها إلى قط أبيض يتلاعب بصرصار ميت عند باب المطبخ.

- لم يقتلوا تلك التي تظن أنها قُتلت.

استمرت في مراقبة القط وهو يلتهم عجين الخبز وأضافت:

- اختلطت الأسماء على مارغريتا.

أربك كشف لا تشاتا «الغجري»، إذ لم يعرف ما إذا كانت تتحدث بجدية.

- من طعنوها في لوما غراندي تسمى أديلا، لا غابرييلا.

- كيف عرفتِ؟

- أخبرني المُبشران بالأمر. كانت واحدة من الجدد. دفنوها يوم الأحد ليلًا.

- وماذا أيضًا؟

- لا شيء. لم يعد المبشران إلى لوما غراندي منذ ذلك الحين ولا يعرفان ما حدث.

اختلج «الغجري» مرتاحًا، فقدمت لا تشاتا مقعدها حتى أصبح وجهها لا يبعد عن وجهه سوى بضعة سنتيمترات.

قالت له:

- اسمعني جيدًا.. الآن عليك أن تترك غابرييلا هذه، لو أنك تود فعلًا ألا تُقتل.

- ما الذي تتحدثين عنه؟

مالت لا تشاتا بجسدها نحو الخلف.

- عن أنك تحب التحامق. من أين أتيت بمسألة أن الميتة اسمها غابرييلا؟

ابتسم «الغجري».

- يُمكن للمرء أن يُميز من على مسافة فراسخ كثيرة أن غابرييلا هذه تُسيطر عليك. عليك فقط أن تتذكر أن: المرأة المتزوجة إما تلمسها فقط في مرورك، وإما أن تسرقها وتهرب في بحورك.[1]

أنهى «الغجري» فطوره ونهض من فوق الطاولة، وقال:

- شكرًا.

سألته لا تشاتا:

- على أي شيء؟

- على الفاصولياء. كانت جيدة جدًا.

---

(1) الجملة التي وردت في النص الإسباني هي "a la mujer casada, o se le toca de pasada o se la lleva uno robada" وترجمتها الحرفية هي: "المرأة المتزوجة، إما يلمسها المرء في مروره، وإما أن يسرقها"، لكن فضلت ترجمتها بالصورة الواردة في الأعلى لتقفية الجملة بالعربية كما هي مقفاة بالإسبانية بكلمات "casada, pasada, robada" وذلك للحفاظ على روح النص الأصلي، دون الإخلال بالمعنى. (المترجم)

بينما هو فوق الفراش، فكر «الغجري» بتمعن وتوصل إلى أن شعوره بكل هذا الهم والغم، لأنه ظن أن غابرييلا ميتة، يعني شيئًا واحدًا: أنه يعشقها ويجب عليه فعلًا أن يسرقها. لا يوجد حل سوى هذا: في اليوم التالي، سيعود إلى لوما غراندي من أجلها. هكذا، أغلق عينيه وحاول أن يعوض الساعات التي لم يتمكن من نومها في الليلة الفائتة.

الفصل الرابع عشر: أفضل طريقة لقتله

1

ابتعد خمس خطوات، ووضع إصبعه على زناد المسدس، مد ذراعه في اتجاه شجرة الصبار. أغلق عينه اليسرى بقوة وسعى بتلك اليمنى لضبط الهدف في مسار التصويب. حبس أنفاسه ليسيطر على نبضه، لكنه لم يتمكن من تفادي اهتزاز مسدس الـ«درينغر ديفيز» من هذا الجانب إلى ذاك. اعتصر المقبض، ولما ظن أنه يصوب جيدًا على شجرة الصبار، أطلق الرصاصة. فتح كلتا عينيه وفحص الشجرة ليرى ما إذا كان قد أصاب الهدف، فهز توركواتو رأسه نافيًا، ثم أصدر حكمه وهو يعقد ذراعيه:

- لقد أخفقت.

اقترب خوان بريتو من الشجرة وفحصها ليرى ما إذا كان ثمة ثقب. لا شيء. لم تلامسها الطلقة أصلًا. أرخى رامون يده وأنزل السلاح.

أكد باسكوال:

- أطلقت الرصاصة عاليًا جدًا. لقد رأيت كيف ارتفع التراب عند الربوة الصغيرة.

لم تكن إصابة الهدف سهلة جدًا كما بدا لرامون. لم يملأ مسدس «درينغر ديفيز» يده جيدًا من فرط صغره وخفته، واستحال عليه أن يمنع ماسورتيه من الاهتزاز.

أكد مائيدونيو:

- ستضطر إلى وضع السلاح قريبًا جدًا من رأسه، لأن تصويبك هكذا لا قيمة لأُمه[1].

احتج توركواتو:

- أجل، ولم لا! فـ«الغجري» سيترك رامون يقترب منه ببساطة.

وقال:

- ما يجب على رامون فعله هو تعلم التصويب من بعيد.

طلب بعدئذٍ السلاح من رامون، أزال الفارغ، ونفخ في بقايا البارود المحترق داخل المغلاق، ثم بلل كعب السلاح بلعابه وعمَّره مجددًا.

قال لرامون:

- ركز.. الخدعة لتجيد الأمر تكمن في ألا تمد كوعك.

وقف توركواتو مباعدًا بين ساقيه وهو يصوب في اتجاه مواز نحو الهدف. رفع ذراعه المضموم وهو يرسم زاوية قائمة. تنفس بعمق، ثم صوب وضغط فوق الزناد ببطء. تردد صوت الرصاصة وصداها مع حائط السد. رفع توركواتو رأسه لتأمل مسار الطلقة بصورة أفضل. قال خوان:

- لا شيء. تصويبك أعلى من رامون أصلًا.

رفع توركواتو طرف ذقنه وهو يتحداه.

---

(1) وردت في النص الإسباني "como tiras vas a valer para pura madre" بذكر لمسألة الأم في الدارجة المكسيكية، كما يحدث في بعض اللهجات الدارجة العربية. فضلت كتابتها بهذه الصورة، للحفاظ على روح النص الأصلي، وجزء من التكوين المجتمعي للشخصية ولغتها (المترجم).

- أنت ثرثار. لم تر جيدًا.

سار في اتجاه الشجرة وتفحصها مرة تلو الأخرى بحثًا عن أي أثر للرصاصة، إلى أن اعترف في النهاية بأنه أخطأ الهدف، لكنه قبلئذٍ أكد بحسم:

- إبرة رماية هذا المسدس معووجة.

سواء كانت معووجة أم لا، تيقن رامون من أن قتل «الغجري» بمسدس «درينغر ديفيز» أمر صعب، إذ وجب عليه أن يطلق رصاصته من مسافة قريبة، بل ويُفضل أن يوجهها نحو صدغه أو بين عينيه.

شرح له ماثيدونيو:

- مثلما تفعل مع الأرانب البرية حيت تهاجم وهي تكشر عن أنيابها.

لم يعرف رامون قياسًا واضحًا لرباطة جأشه، وما إذا كان سينجح في السيطرة على أعصابه حين تأتي ساعة الاقتراب من «الغجري» وإطلاق النار عليه.

في الثالثة عصرًا، كان أغلب سكان لوما غراندي قد عرفوا أن رامون كاستانيوس يُفكر في قتل غريمه بالمسدس الذي أعاره إليه خوان بريتو. «نفس المسدس الذي قتل به شرطيًا في تكساس»؛ هذا هو ما أكده من لا يعرفون قصة خوان الحقيقية. انتشر أيضًا نبأ أنه مسدس غدار يستحيل التصويب به بدقة. لهذا السبب تحديدًا اجتمع بعض رجال القرية في المتجر لمناقشة صحة استخدام مسدس الـ«درينغر ديفيز» من عدمها. هكذا، جاءت وذهبت الحُجج.

قال إتييل ثيربيرا:

- ظني أن هذا المسدس الصغير هو المطلوب. لن يدرك «الغجري» أصلًا

أنه في يد رامون.

قاطعه أمادور:

- لكن الطلقات هي الأخرى صغيرة. لو لم يطلقها رامون في رأسه بالضبط، فسيضاجعه «الغجري».

أكد لوثيو:

- أجل. تبدو كأنها طلقات لقتل الأرانب.

قال سيرينيو، أصغر أبناء آل بيريث، بثقة:

- لا يا رجل. لقد قتلت أيائل بطلقات أصغر من عيار 22. بطلقات مثل هذه يمكنني أن أقتل لك نمرًا.

سخر لوثيو:

- هذا مجرد كلام. في أي وقت في حياتك اصطدت آيلًا بائسًا؟

كان سيرينيو على وشك الاستمرار في النقاش، إلا أن توركواتو تدخل، إذ قال لرامون:

- ما عليك فعله هو أن تقتله من دون أن يراك.

اعترض ماثيدونيو:

- في ظهره؟ لا. هذا ليس من شيم الرجال.

دحض توركواتو حجته:

- و«الغجري» كان رجلًا جدًا حينما طعن الفتاة في ظهرها، أليس كذلك؟

اعترف ماثيدونيو:

- حسنًا.. أنت محق في هذا الأمر.

ثم وجه بعدئذٍ حديثه إلى رامون:

- إذن، نعم، أطلق عليه النار في ظهره.

سأل أمادور:

- وكيف له أن يفعل أمرًا كهذا و«الغجري» الملعون يسير دومًا ملتصقًا بالجدران؟

أضاف بدرو إسترادا:

- أجل. إنه أمر صحيح. هذا الوغد لا يهمل هذه المسألة أبدًا.

لما وصل مارثيلينو، كان الرجال لا يزالون منغمسين في نقاشهم. لو ركز أحدهم في نظرته الشزراء، لأدرك أنه جاء بحثًا عن المشاكل.

قاطعهم فجأة:

- ما من داع لكل هذه الحوارات، لأن «الغجري» الملعون سيكون غبيًا لو عاد.

صمتت بقيتهم. لم يضع أحد احتمالية عدم إتمام الثأر ضمن توقعاته، إذ سلّموا جميعًا بأن «الغجري» سيأتي إلى لوما غراندي، في بداية الشهر.

واصل مارثيلينو حديثه:

- لن يكون غبيًا جدًا إلى درجة العودة، أم هل ظننتم أنه سيأتي ليضع ورودًا على قبر القتيلة؟

من دون أن يتحرك من فوق المقعد الذي جلس عليه أو أن يترك أصلًا الجعة الموجودة في يده، أكد خوستينو تِييث:

- سيعود. كن متأكدًا من هذا.

التفت مارثيلينو في اتجاهه وابتسم وثمة إيماءة مفككة فوق وجهه

- وأنت؟ ما الذي تتحدث عنه؟ ألم تش بالأمر لكارميلو لوثانو؟ هل تفكر أننا لم ندرك أنه ذهب صباحًا إلى بيتك؟

شرب خوستينو قليلًا من الجعة، ووضع ذراعيه وراء مؤخرة رقبته، وأجابه من دون أن تتغير نبرته مُطلقًا:

- أمك هي الواشية يا وغد.. لو أنك لا تعرف شيئًا عما قلته لكارميلو، فمن الأفضل أن تُطبق فمك.

خرجت أرملة كاستانيوس، التي سمعتهما من وراء حائط البيت، إلى المتجر وهي تتوقع حدوث مشكلة كبرى. اجتازت حلقة الرجال وتمتمت بعبارة «مساء الخير» للجميع، ثم سألت لوثيو إسترادا عن صحة إيبيليا، وبدرو إسترادا عن حالة روسا، وجلست على مقعد بجانب نضد البيع.

نجحت مناورة الأرملة، إذ هدأت الأجواء. مع ذلك، استمر النقاش: في البداية حول موضوعات متفرقة، إلى أن عاد مرة أخرى ليتناول مسألة مسدس الـ«درينغر ديفيز».

استمر الجدل برهة كبيرة دون أن تتراءى أي حلول. نحو الخامسة مساء، كان عدد المجموعة قد تنامى، وانضم من يصلون سريعًا إلى هذا الطرف أو ذلك الآخر، ووازنوا بين مزايا وعيوب الـ«درينغر ديفيز». انجرف النقاش نحو استطرادات سخيفة حول الترابط بين طول الماسورة وأثر الرصاصة، وأثر سرعة الريح على ثقل الطلقة، بل والقطع المكافئ للمقذوف قصير المدى، بصورة لم تقترب أصلًا من لُب الموضوع: قتل أحد الرجال؛ أو بمعنى أصح قتله كما يجب.

بدا أن خاثينتو كروث قد لاحظ الأمر، فقال لرامون كأنه لا يوجد شخص سواهما:

- انظر.. كفانا من هذا الهراء. سأقول لك أفضل طريقة لقتل «الغجري».

أسكت تدخل خاثينتو المفاجئ البقية. بقي مسدس «درينغر ديفيز» في الخلفية وانصب الاهتمام الجماعي على خاثينتو وما سيقترحه على رامون، لكن خاثينتو لم ينطق كلمة بخصوص الأمر واقتصر ما فعله على مطالبة صاحب المتجر بمرافقته:

- يجب عليَّ أن أريك كيف تقتله، لأنك لن تفهم بمجرد الكلام.

غادر كلاهما ومن ورائهما باسكوال وتوركواتو وماثيدونيو. شاهدتهم البقية بارتباك وهم يبتعدون، محاولين التظاهر بأن الفضول لن يقتلهم لمعرفة ما سيُظهره خاثينتو لرامون، وشرعوا مجددًا يتناقشون عن عيوب ومزايا مسدس «درينغر ديفيز» عيار 25 المزود بماسورتين، بطول عشرة سنتيمترات.

2

استيقظ «الغجري» من قيلولته وثمة فكرة واحدة تُضنيه: أن غابرييلا قد تُقتل في هذه الليلة. بدا له هاجسه سخيفًا وحاول أن يقلل من أهميته، لكنه عجز. ثمة مسائل عالقة لم تُحل وقد تؤدي إلى تبعات غير متوقعة. ما أكله من الداخل تحديدًا شكوكه حول ما إذا كان بدرو سالغادو قد أصبح على دراية بغرامياته مع غابرييلا أم لا. أيضًا، حيَّرته هوية الفتاة المقتولة. من هي؟ لماذا طُعنت؟ في تلك اللحظة، فكر في أنهم ذبحوها بطريق الخطأ وأن المقصودة كانت غابرييلا. غابرييلا، غابرييلا. لقد آلمه اسم غابرييلا. لماذا يقلق عليها

بهذه الصورة؟ لِمَ لا يُمكنه أن ينساها كما فعل مع الأخريات. لطالما راقه اللعب مع النساء المتزوجات؛ وأن يذهب بهن إلى حد السكين ويهجرهن في اللحظة التي يعتزمن فيها تحديدًا أن يرحلن معه. لماذا يعجز عن التصرف هكذا مع غابرييلا؟

عليه أن يعود من أجلها في أسرع وقت ممكن. لن يقدر على تحمل قضاء ليلة أخرى بعيدًا عنها وهو يحلم بالديدان وهي تلتهمها أو وهو يشتهيها بغضب. حاول ألا يتسرع. إن الذهاب في تلك الليلة نفسها إلى لوما غراندي لا يستحق العناء، لأنه سيصطدم بالتأكيد بزوجها وقد يتصاعد العنف. من الأفضل أن يظهر في القرية في الصباح التالي بعد أن يخرج بدرو سالغادو للعمل في حقول القطن مع بقية العمال باليومية.

فكر في أنه قبلئذٍ عليه أن يستقصي بتمعن ما حدث في لوما غراندي مع جريمة أديلا. لا يُمكنه أن يصل إلى القرية وهو يجهل الأمر. افترض أن كارميلو لوثانو يعرف شيئًا على الأرجح، وقرر زيارته في مقر قيادة الشرطة الريفية في ثيوداد مانتي.

ترك نزل «لوس ألباتروس» حين انتصف المساء. لم يعثر على لا تشاتا فرناندث أو ابنتها، ولهذا وضع المال الذي يدين لهما به في ظرف ومرره من أسفل عقب باب غرفتهما. أرفق معه رسالة بدت كبرقية أكثر من كونها رسالة:

«تشاتا. أنتِ محقة. المرأة المتزوجة، يجب أن تُسرق. تحياتي. خوسيه إتشيبيرّيا بيرّيوثابال».

3

مروا أولًا على بيت خاثينتو حيث أخذ الجزار بعض الحبال ومخلاة صغيرة.

سأله ماثيدونيو:

- ما الموجود معك هنا؟

أجابه خاثينتو وهو يعلق المخلاة فوق كتفه ويسلم كل واحد منهم حبلًا:

- إنها مفاجأة.

ساروا حتى وصلوا إلى المراعي التي تحيط بالقطاع الجنوبي لتل «إل برنال». لما وصلوا، طلب منهم خاثينتو أن يعثروا على ثور ضارب إلى الحُمرة، جبهته بيضاء وذيله مقطوع من منتصفه. عثر عليه باسكوال وهو يرعى بعيدًا، أسفل شجرة مسكيت، عند سفح التل حيث تكاثفت الأجمات.

وفقًا لخاثينتو، هو ثور جبلي عنيد طليق منذ فترة طويلة في الريف. قال لهم:

- إنه متوحش جدًا، لهذا فلتتوخوا الحذر.

تفرق الخمسة لمحاصرته. اقتربوا منه في صمت لتجنب إفزاعه وهروبه. تمكن خاثينتو، بعد الاختباء بين أشجار الأكاسيا الحلوة، من إبقائه على بعد خطوات قليلة منه. قرفص وحاول ربطه. اصطدم الحبل بظهر الحيوان وانزلق. انتصب الثور متحديًا، بعد أن شعر بالتهديد، وانطلق يركض نازلًا المنحدر. حاول توركواتو أن يقطع عليه الطريق، لكن الحيوان تجاهله.

صرخ خاثينتو في رامون:

- اقطع عليه الطريق من هنا.

ركض رامون قُطريًا وهو يحاول أن يلحق به، لكن الثور استبقه واختفى بين بعض الأجمات، وعلى الرغم من سماعهم لصوته وهو يحطم الأغصان والأجمات، شق عليهم تخمين أين سيظهر. توقع خاثينتو، صاحب الدراية الكبيرة بهذه الأرض، أنه سيظهر عند المنحدر العلوي للجدول الجاف، فصفر إلى باسكوال كي يذهب إلى هناك.

اجتاز باسكوال قطعة أرض خاوية واحتمى بشجرة صبار. شعر أمامه بنخير الحيوان وحضر حبله المعقود. بزغ الثور من وسط الأجمات المتكاثفة وسلك السكة الموازية للجدول. انتظره باسكوال، ولما رآه يمر ربط إحدى ساقيه. خار الثور لما أدرك أنه قد علق في العقدة وانطلق مسرعًا. غرز باسكوال قدميه في الأرض محاولًا أن يوقفه. مع الشد والجذب، دار الثور في دائرة وانقض على الرجل. تدحرج باسكوال ونجا من هجوم الحيوان الذي انزلق مع اندفاعه فوق الأوراق الجافة وسقط في قاع الجدول، فلف باسكوال الحبل في يديه وتركه يجذبه، عازمًا على ألا يفقده.

لما انزلق الثور، اصطدم جانبه بصخرة ومع هذه الضربة تدحرج في لفة كاملة. ود باسكوال أن يربط الحبل بشجرة، لكن الثور الغاضب انطلق راكضًا وسط أحجار قاع الجدول الجاف وهو يقطره وراءه.

شاهد توركواتو وخاثينتو ورامون من مكانهم عند المنحدر كيف تقدم باسكوال والثور سريعًا بين الأحجار المفتتة، فسارعوا بالنزول. لحق بهما رامون أولًا ونجح في ربط الثور من رقبته. صرخ فيه توركواتو:

- اسحبه.

أوثق رامون عقدة الحبل فوق الثور وقلل من سرعته. وصل توركواتو إلى مكان الحيوان وقبض على ذيله. استدار الثور لمحاولة ضربه بقرنيه، إلا أن

توركواتو قبض على ذيله جيدًا ودار معه. تمكن باسكوال من النهوض وربط حبله حول أحد الجذوع. فعل رامون نفس الشيء. توقف الثور عن القتال لما بات منهكًا وبقي بلا حراك في النهاية. أفلت توركواتو ذيله وابتعد إلى أبعد مسافة ممكنة. وصل خاثينتو وماثيدونيو وتمكنوا جميعًا من قلب الحيوان لربط سيقانه.

قال باسكوال وهو يبصق على جراح راحتَي يديه الناجمتين عن احتكاك الحبل في شده وجذبه مع الحيوان:

- ثور ملعون! بدا كالشيطان نفسه!

ضحك خاثينتو:

- ألم أقل لكم إنه لا يرحم.

بينما يرقد الثور على بعد بضعة أمتار منهم، نفخ لاهثًا وهز رأسه محاولًا النهوض.

مضى خاثينتو في حديثه:

- حسبت أن بإمكاننا أن نجره إلى الحظائر، لكن يبدو لي أنني سأذبحه هنا.

سأل ماثيدونيو:

- وما معنى هذا؟ أننا سنضطر أن نحمله؟

أجابه خاثينتو:

- لا يا رجل! سأذبحه هنا ثم سآتي بالبغَّال لأخذ اللحم.

وضع المخلاة فوق ساقيه وأضاف:

- الآن فعلًا يا رامون سأعلمك كيف تقتل «الغجري».

ثم أخرج من المخلاة معولًا للثلج ومشحذًا للسَن. بَرَدَ حده ثلاث أو أربع مرات واختبر مدى كفاءة سنه بطرف إبهامه، وقال:

- بتنا جاهزين الآن.

سار إلى حيث تمدد الثور. تحسس فيما بين ضلوعه، وحدد نقطة خيالية بإبهامه قُرب أعلى نقطة عند قائمته الأمامية.

أشار:

- هنا يوجد القلب.

لما استشعر الثور خطرًا، أطلق خوارًا مبحوحًا تردد صداه بين جانبَي الجدول الجاف، فانتفخ وريد طويل وسميك فوق رقبته وارتعد جلد ظهره في ارتعاشات صغيره.

رفع خاثينتو معول الثلج بيده اليُمني وفرد ثنايا الجلد بيسراه ثم قال: عليك أن تغرزه هكذا.

وبحركة واحدة مُباغتة، غرز المعول حتى مقبضه في جسد الحيوان.

خار الثور بصوت خافت ودارت عيناه في محجريهما. حرك خاثينتو معول الثلج بضع مرات داخل الحيوان، ثم أخرجه رويدًا رويدًا، وإذ بالدم يتدفق على الفور من الجرح.

لم يحظ رامون، المندهش من عملية الإعدام، بالوقت الكافي ليتراجع إلى الوراء ورأى كيف تلطخ حذاؤه بحمرة الدم. شعر بالدوخة وتخيل أديلا وهي تدمي هكذا.

شرخ خاثينتو:

- ثمة حفرة في قلبه بالضبط. لن يستغرق وقتًا كثيرًا في تصفية دمائه.

نظر الثور إليهم بجزع وبريق عينيه ينطفئ. بدا هكذا، وهو ساكن ويحتضر، كمجرد بهيمة وديعة مختلفة تمامًا عن الوحش الغاضب الذي صارعهم بقوة منذ دقائق.

ارتفعت نافورة الدم وهبطت بصورة متقطعة مع إيقاع كل نبضة قلب إلى أن تحولت إلى سيلان متقطع أيضًا. نخر الثور ليطرد من أنفه دمًا متخثرًا، ثم تمددت أوردة رقبته إلى أن اختفت. فجأة، مد رأسه وساقيه الخلفيتين وتركها كلها تسقط بتثاقل.

راقب خاثينتو آخر تشنجات الحيوان وقال لرامون من دون أن يلتفت لينظر إليه:

- هل فهمت؟

من دون تفكير، قال رامون، الذي تخيل أديلا وهي تموت بذات الطريقة:

-لا.

استمر خاثينتو:

- انظر، لو أن ثورًا بهذا الحجم قد سقط بكل سهولة هكذا، فتخيل السرعة التي قد تتمكن بها من تصفية «الغجري» من دمائه.

بدت هذه التقنية بالنسبة إلى توركواتو، الذي يعرف مدى صعوبة التعامل مع ذبح الكباش والعجول، أمرًا رائعًا، لأنه بهذه الصورة لم يعد مضطرًا إلى البحث عن وريد الكباش الوداجي لذبحها، ولا العثور على فقرات العجول العنقية لكسر رقابها بالفأس. كل ما يحتاجه الأمر الآن غرزة نظيفة ودقيقة.

أبدى ماثيدونيو حماسه، وقال مقتنعًا بأن معول الثلج مثالي من أجل الثأر

لأنه قصير وقاتل:

- لن يدرك «الغجري» ما الذي قتله أصلًا.

رويدًا رويدًا، نسي رامون أديلا وركز في شروحات خاثينتو:

أضاف الجزار:

- تكمن الخدعة في أن توجه ضربتك بقوة تحسبًا لأن تصيب عظمة، فهكذا سينزلق السن وينغرز في الداخل، ولهذا عليك أن تسن المعول جيدًا.

وقف خاثينتو إلى جوار رامون وأخفى معول الثلج في كم قميصه. قال هو يشير نحو ساعده الأيسر:

- عليك أن تحتفظ به هنا، لكيلا يراه «الغجري» وهو معك، وحين تصبح في موقع مثالي، أخرجه باليد الأخرى واغرزه أسفل إبطه.

ناول رامون المعول وقال:

- هيا، فلتفعلها بنفسك.

أمسك رامون بالمعول من مقبضه وتدرب على الهجوم مرتين أو ثلاثًا تحت إرشادات خاثينتو.

اقترح باسكوال:

- والآن حاول مع البهيمة.

التفت رامون ونظر إلى الكتلة المتصلبة الموجودة إلى جواره وسأل:

- لماذا؟

أجاب خاثينتو:

-لتكتسب المهارة اللازمة.

رفعا الثور من قرونه وعلقوه على فرع شجرة أبنوس.

أمره خاثينتو:

- اطعن الضلوع واخترق العظام.

دفع باسكوال الجثة وجعلها تهتز. نفذ رامون هجومه لكن معول الثلج لم يدخل إلا لمسافة بسيطة.

وبخه خاثينتو:

- لا. لا. لا. عليك أن تدفعه بذراعك كله. دعني أُرِك.

وقف خاثينتو إلى جوار الثور وأرجحه باسكوال مجددًا. قرفص الجزار ومع أول تأرجح للجثة وجه ضربته بعنف، فانغرس معول الثلج من سنه حتى مقبضه.

- عليك أن تضرب برجولة، لأن «الغجري» لن يشعر سوى بالدغدغة لو ضربته بهذه الصورة.

حاول رامون أربع مرات أخرى، إلى أن تمكن في الخامسة من إدخال النصل بالكامل داخل اللحم الضارب إلى البنفسجي، ثم كرر الأمر ثلاث مرات إضافية لإثبات أنه قد أتقن التقنية.

ربت خاثينتو فوق ظهر البهيمة وكرر على مسامع رامون مسألة أن يُهاجم «الغجري» من أسفل إبطه، بمحاذاة حلمته اليسرى.

أنهى كلامه:

- بمجرد أن تغرز السن حرِّكه في كل الاتجاهات كي تمزق أحشاءه.

حير ماثيدونيو الأسلوب الوادع والمطمئن بل والأبوي الذي استخدمه

خاثينتو في توجيه تعليماته إلى رامون، فسأله:

- قل لي يا خاثينتو، كم عدد الحمقى الذين نالوا هذا النصيب منك؟

أجابه خاثينتو من دون أي شعور بالإهانة:

- أنا لم أفعلها مع أحد، لكن من علمني قتل البهائم هكذا، قتل عشرة أوغاد على الأقل.

لم يصدقه أحد، ومع ذلك لم يتطرقوا لاحقًا إلى ذلك الموضوع.

شقوا الثور من منتصفه وأفرغوا أحشاءه. أخذ خاثينتو ما يؤكل منها: الكبد، والرئة، والمعدة والقضيب، والكليتين، وحفظها كلها في حقائب بلاستيكية. بعدئذ، وضع في حقيبة أخرى منفصلة المنفحة والخصيتين. أظهر للكل القلب بالثقوب الستة الموجودة فيه، ثم ناوله إلى رامون.

قال له:

- تصويبك جيد. احتفظ به.

سلخوا الجثة وغطوها بأفرع شائكة من شجرة الأكاسيا الحلوة لكيلا تلتهمها حيوانات القيوط. ملّح خاثينتو الجلد، ولفه، وربطه بحبل.

اقترح على باسكوال:

- سأهديك الجلد، لو أقرضتني عربة جدك.

واتفقا على العودة ليلًا لأخذ بقية الذبيحة.

عادوا إلى القرية قبل أن يحل الظلام. وهم في طريق العودة، وضع رامون يده أكثر من مرة في جيبه، إذ ود أن يتحقق مما إذا كانت صورة أديلا الملتقطة بالأبيض والأسود التي يظهر فيها جانبا وجهها وثلاثة أرباع نصفها العلوي

لا تزال فيه أم لا.

4

وصل «الغجري» إلى إل أبرا وتوقف لشراء اثنتَي عشرة دزينة من البرتقال، فهو لم يأكل شيئًا سوى طبق الفاصولياء الذي تناوله صباحًا. جلس فوق غطاء محرك الشاحنة، وقشر برتقالة بأسنانه، ومص عصارتها من فصوصها وبصق لُبها. بخرقة رطبة، نظف البقع الصفراء الضاربة إلى الخُضرة التي تركتها عشرات اليعاسيب إثر اصطدامها بالزجاج الأمامي. أكل برتقالة أخرى ووضع البقية داخل ثلاجة محمولة.

غادر إل أبرا وسلك الطريق الفيدرالي نحو ثيوداد مانتي متطلعًا للقاء كارميلو لوثانو. تذكر في طريقه بحارًا يونانيًّا تعرف إليه في طفولته. كان قبطانًا لسفينة تجارية ترفع العلم الليبيري ترسو في مسارها التجاري في كولون، وبروغريسو، كواتاكوالكوس وبيراكروث وتامبيكو وبرانسفيل. أطلقوا عليه لقب باباديميترو «الأحمر»، ومرد الأمر ليس شعره الأحمر، الذي شاب بالكامل وهو في عمر الأربعين، وإنما كونه مناصرًا متحمسًا للشيوعية.

تحدث الإسبانية بصورة صحيحة، بلكنة تمزج بين الطابعين الأجنبي والساحلي. لجأ فقط إلى لغته الأم، كلما غضب وهتف بعبارة «ستارغيديا مو». اشتهر في تامبيكو، ضمن أشياء أخرى، بممارسته الرياضة عبر قيادة دراجته الهوائية فوق سطح سفينته. تعرف «الغجري» إليه في حانة عند رصيف الميناء اعتاد روادها أن يراهنوا فيها بقوة في لعبة الورق الإسبانية. ذهب «الأحمر» نادرًا إلى هناك للمراهنة، إذ انشغل في أغلب الأوقات باحتساء بعض الكؤوس مع أصدقائه. كان يجيد فن المحادثات ويروقه ابتكار نظريات

مبالغ فيها حول الحياة اليومية، وهكذا اعتاد كثيرون أن يجلسوا حوله -ومن ضمنهم «الغجري»- لينصتوا إليه فقط.

في واحدة من تلك الليالي الكثيرة، قال باباديميترو «الأحمر» جملة انحفرت في روح «الغجري». لقد شرح له تحديدًا: «المرأة إما جسد أو إنسانة»، فقال له أحد الجالسين إن هذا الوصف صبياني، فكل امرأة أصلًا جسد وإنسانة، فاسترسل «الأحمر» في شروحاته وآثار زجاجة الويسكي واضحة عليه: «انظروا.. ثمة نساء ينام المرء معهن و«فينيتو»!( ) ينتهي الأمر. يمررن في حياته كأنهن لم يمررن بها، فينساهن في اليوم التالي. هؤلاء من أسمِّيهن نساء الجسد، لكن على النقيض منهن، لدينا أخريات يمكنك أن تنام معهن طوال حياتك ولن تنتهي أبدًا من مطارحتهن الغرام، لأن كل دقيقة من حياتهن عبارة عن صندوق مفاجآت. هذه هي المرأة الإنسانة. ينبذ المرء كل من ينتمين إلى النوع الأول و«سلام-سلام»( ) من دون أن يرغب في معرفة شيء آخر عنهن، أما من ينتمين إلى النوع الثاني فيبقين داخلك، مهما وددت أن تُخرجهن من رأسك».

تسببت كلمات «الأحمر» في صفير متواصل، وتصفيق، وسباب للأمهات، واتهامه بأنه ذكوري ووقح ومتباه ووغد. لم يشغل «الأحمر» باله كثيرًا بالضجة التي بدأها واستمر في عرض تكهناته.

تأثر «الغجري» جدًا بأفكار «الأحمر» ولم يتوقف عن التفكير فيها طوال الليل. تساءل ما إذا كان الرجال أيضًا يصنفون إلى «جسد وإنسان» في أعين النساء، وعما يحدث أيضًا حين يلتقي «رجل جسد» بـ«امرأة جسد» أو «رجل إنسان» بـ«امرأة جسد»، أو العكس.

في اليوم التالي، ود أن يتبجح أمام زملائه في المدرسة وينسب إلى نفسه النظرية التي سمع «الأحمر» ينطقها. لم يتوقع أن يرتد ما قاله ضده، إلى أن قال

له أحد زملائه:

- إذن، أمك من ضمن من تُسميهن نساء الجسد، فعلى حد علمي، لم يضاجعها أبوك إلا لمضاجعتها وهجرها وأنت معها بالمرة..

شحب وجه «الغجري» من فرط الغضب بينما يسخر الآخرون منه. ود أن يضرب من أهانه، إلا أن ذلك الثاني عوضًا عن مواجهته انطلق راكضًا عبر كل أنحاء الفناء وهو يهتف: «تعالوا وانظروا إلى ابن المرأة الجسد، تعالوا وانظروا إليه..». هكذا قرر «الغجري»، إثر شعوره بالخزي، أن يغادر المدرسة الابتدائية ولم يعد إليها قط.

لم يعد أيضًا إلى الحانة ومقت «الأحمر» طوال حياته، بل وابتهج بعد عدة سنوات لما علم أنهم عثروا عليه ميتًا وثمة جزء من زجاجة ويسكي مغروس في معدته. لقد قتلته إحدى ساقطات الميناء. كانت امرأة جسدًا.

لم يتذكر «الأحمر» ونظرياته إلا في مساء ذلك الثلاثاء وهو يقود شاحنته على الطريق المؤدي إلى ثيوداد مانتي، حينما لاحظ أنه مهما تطارح الغرام مع غابرييلا، فإنه لن يكتفي من الأمر أبدًا. قد يُقبلها من قدميها حتى رأسها من دون أن يشبع منها. قد يلعق كل سنتيمتر من بشرتها ويعثر في كل واحد على مذاق مختلف. اعتقد حينئذ أنه قد تفهم القبطان اليوناني. ما قاله «الأحمر» ليس مجرد ثرثرة ذكورية، وإنما أطروحة خرقاء لرجل مغرم فعلًا يبحث عن طريقة لتمييز المرأة التي يُحبها عن باقي النساء.

5

وصل إلى ثيوداد مانتي واجتاز المدينة من هذا الطرف إلى ذاك حتى وصل

إلى المخرج المؤدي إلى ثيوداد بيكتوريا. يقع مقر قيادة الشرطة الريفية في البيت الأخير، عند بداية الطريق السريع تقريبًا.

قرع الباب. فتحه له شرطي ناعس، قميصه مجعد وتفوح من أنفاسه رائحة الجعة.

-كيف الأحوال يا «غجري»؟ ما الأمر؟ ادخل. القائد في غرفة النوم.

يذهب «الغجري» شهريًا إلى مقر القيادة لسداد ديونه، واشتهر داخل المؤسسة بكونه مُهربًا يدفع ما عليه، وأنه رجل بعيد عن المماحكات والمشاكل بغض النظر عن مسألة تورطه الدائم مع نساء متزوجات. عثر في إحدى الغرف على كارميلو لوثانو وهو يلعب الدومينو مع ثلاثة من مرؤوسيه. قُرب مقعده، ثمة عبوات جعة فارغة تحمل علامات تجارية مختلفة، وفوق الطاولة زجاجة من مشروب الـ«أغواردينتي» المصنوع من قصب السكر وطبق فيه بقايا من شطائر الـ«كيساديا». لم يضئ المكان سوى مجرد مصباح عار تغطيه فضلات البعوض. دعا لوثانو، الذي لم يرتد قميصًا ووضع خرقة حمراء رطبة فوق كتفيه، «الغجري» ليجلس إلى جواره.

قال له:

- انتظرني برهة صغيرة. دعني فقط أقفل طريق الستة المزدوجة أمام زميلنا هذا وستجدني قريبًا معك.

استمرت مباراة الدومينو. نظر «الغجري» إلى آيلين ميتين معلقين من عارضة في الفناء الخلفي.

أوضح له لوثانو:

- صادرناهما من بعض الصيادين. سننظم غدًا حفل شواء، ما رأيك أن تنضم إلينا؟

أجابه «الغجري»:

- لا. لديَّ أمور لأفعلها.

ركز نظرته على قطع النقيب، فقلب لوثانو واحدة منها نحو الأعلى وتركها تلف حول الطاولة، ثم قال:

- مع هذه اللعبة، سأرحل.

هكذا كان الأمر: وضع أحد اللاعبين قطعة أربعة مزدوجة، فاستخدم النقيب قطعته الأخيرة: أربعة-اثنان.

نهض لوثانو من على الطاولة ومد جسده إلى أن لمس السقف بيديه، ثم أمر:

- دوروا البلاطات من جديد، ريثما أرى هنا ما الذي يريده هذا الرفيق.

تجرع بعضًا من الـ«أغواردييِنتي» وعرض الزجاجة على «الغجري» وهو يسأله:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- الدنيا يا قائد.

ابتسم لوثانو.

- وما الذي أتى بك هنا غير الدنيا؟

- لديَّ بعض الأعمال العالقة في لوما غراندي.. قالوا لي إن ثمة مشكلة هناك.. ما الذي تعرفه عن الأمر؟

-ثمة فتاة قد قُتلت..

قاطعه «الغجري»:

- أجل. علمت الأمر.

لكن لوثانو مضى في حديثه من دون أن يوقف عبارته:

- .. وثمة جلبة كبيرة في القرية.

- إلى هذه الدرجة؟

- بالدرجة الكافية لكسر أُمك( ) لو خطر على بالك أن تذهب إلى هناك.

- ولماذا أنا؟ ما صلتي أنا بهذه الجنازة؟

مد لوثانو جسده مجددًا، ثم تركه يسقط بتثاقل فوق المقعد:

- إنها أحاسيس يا رفيق. أحاسيس.

بدأ بعدئذٍ دورًا آخر، ثم سأل:

- وما هي أعمالك العالقة؟

- سأجمع بعض الديون.

- اجمعها إذن.

- اتفقوا على سدادها لي غدًا.

أخذ لوثانو سبع قطع دومينو، وواءم بينهما ثم رتبها رقميًا.

قال وهو يظهر ما لديه للـ«غجري»:

-انظر فقط! يا لها من لعبة ملعونة يا رفيق!

رفع رأسه ونظر إلى زميله وسأل:

- من سيبدأ؟ أنت أم أنا؟

بدأ الآخر اللعبة بقطعة ثلاثة مزدوجة.

- يهيأ إليَّ أن ثمة مسألة تربطك مع امرأة من هناك وأنك ذاهب بسبب اشتياقك إليها.

- ثمة شيء صحيح فيما تقوله، لكن أنا ذاهب أصلًا من أجل مسألة الدين.

- هل تود نصيحة مني يا رفيق؟ لا تذهب إلى القرية.. لا تذهب فعلًا، أهاليها في حالة جنون.

- كل ما أوده هو أن أذهب لأحصل على مالي. سأذهب وآتي في نفس اليوم.

صدرت من لوثانو إيماءة رفض وضرب الطاولة بإحدى قطع الدومينو وهو يقول:

- العب أنت.

استمر اللعب وطلب لوثانو تمرير دوره مرة أخرى قبل أن يؤنب زميله:

- اللعنة! انتبه لما أفعله.

أجابه مرؤوسه بتوتر:

- في اللعبة المقبلة، في اللعبة المقبلة.

نظف لوثانو عرق وجهه بالخرقة التي يحملها فوق كتفيه، وتناول مرة أخرى رشفة من زجاجة الـ«أغواردينتي».

- حسنًا يا «غجري». افعل ما يحلو لك.. المهم ألا تأتي لاحقًا لتبكي لي.

انتهى الدور بخسارة فريق لوثانو بفارق خمس وعشرين نقطة.

قال لوثانو وهو يلف القطع:

- يا أولاد الـ..

فرك «الغجري» يديه في بنطلونه متحمسًا وقال وهو يفكر في بدرو سالغادو:

- قل لي يا قائد.. هل من الممكن أن تُعيرني مسدسًا؟ تحسبًا للأسوأ؛ أو أن يصاب أحد أهالي القرية بالجنون؟

هتف لوثانو على الفور:

- لا يا رجل! أصلًا، لماذا تود مسدسًا؟ ألا يقولون إن لديك جلدًا مزدوجًا؟

- صحيح، لكن حتى القطط لها عدد معين من الحيوات.

التفت النقيب نحو «الغجري» وحدق فيه.

- لم الخوف يا رفيق؟ ألم تقل إنك ليس لديك دخل في هذا العزاء؟

أجابه «الغجري» برباطة جأش:

- وألم تقل سيادتك إن الأمور في لوما غراندي مضطربة للغاية؟ أود أن أحصل على المسدس بدافع الحماية فقط.

بدا الأمر كأن لوثانو قد أعجبته الإجابة، إذ غير نبرة صوته وقال:

- لن أعيره لك.

وقبل أن يعترض «الغجري» أضاف:

- سأبيعه لك.

سأله «الغجري» عاجزًا عن إخفاء سروره:

- بكم؟

نظر لوثانو إلى مرؤوسيه الثلاثة الذين يلعب الدومينو معهم كأنه يعقد صفقة معهم ثم أجاب:

- بمليونين ونصف مليون بيزو.

- ما الأمر يا حضرة النقيب؟ بهذا السعر يُمكنني شراء بندقية!

- هذا هو ما أطلبه؟ هل ترغب في المسدس أم لا؟

وضع «الغجري» يده في جيب بنطلونه وتحسس المليوني بيزو اللذين كسبهما من بيع أجهزة التسجيل وقال:

- سأعطيك مليونا ونصف المليون.

أخذ لوثانو قطع الدومينو السبعة التي تخصه ومن دون أن ينظر إليه أجاب على عرضه:

- لا كلمتك ولا كلمتي.. لنجعلها مليونين ومائتي ألف.

- مليون وستمائة ألف.

- مليون وتسعمائة ألف وهنا مات الكلام.

- اتفقنا.

أخرج «الغجري» الأوراق المالية وعدها ووضعها فوق الطاولة.

- ها هو ذا المبلغ.

أخذ النقيب المبلغ بهدوء ومن دون أن يعده وضعه في جيب قميصه.

بدأ الدور، ثم الذي يليه، فالذي يليه من دون أن يتحرك من مكانه، فطالبه «الغجري» بنفاد صبر:

- والمسدس؟

أجابه النقيب وهو يتظاهر بالدهشة:

- أي مسدس؟

قال «الغجري» مرتبكًا:

- لا تُفسد الأمر. لا تتصنع..

قال لوثانو:

- صدقني يا رفيق. لا أعرف ما الذي تتحدث عنه.

ثم نظر إلى رجاله:

- هل تعرفون ما الذي يتحدث عنه صديقنا الموجود هنا؟

هز رجال الشرطة الثلاثة رؤوسهم وهم يبتسمون بحذر

- ها أنت ذا ترى بنفسك، لا نعرف ما هو المسدس الذي تتحدث عنه.

كان «الغجري» يعرف جيدًا أن النقاش مع لوثانو مستحيل، ما دام قد مضى في هذا الاتجاه

- من دون لف أو دوران، هل ستحتال عليّ؟

وضع لوثانو قطعة دومينو في وسط الطاولة وقال:

- سأبدأ بقطعة خمسة مزدوجة.

ثم رطب وجهه بالخرقة المبتلة. لما انتهى، ربت فوق ركبة «الغجري».

- لا تفهم الأمور سيئًا. أنا لا أحتال عليك، وإنما أساعدك.

- بسرقة أموالي؟

شدد النقيب:

- لا، لأنك قدمت المال لي، سأضعه كمقدم لديونك.. ارحل الآن لأنك تشتت انتباهي وقد أخسر.

ود «الغجري» أن يحتج، لكن لوثانو أوقفه مباشرة:

- هيا! إلى الخارج، لأنك إن لم تغرب عن وجهي في هذه اللحظة، فسأخترع لك تهمًا وأضعك في الحبس.

لم يعانده «الغجري» وغادر القاعدة غاضبًا: لقد سرق النقيب منه مليونَي بيزو تقريبًا بيد واحدة.

اجتاز المدينة مجددًا، وتوجه نحو الطرف الآخر -نحو الطريق المؤدي إلى تامبيكو- وصفَّ السيارة عند طريق فرعي. دخل الجزء الخلفي من الشاحنة، وفرش المرتبة على أرضيته، ثم رتب اثنين من الأغطية وتجهز للنوم. لقد اتخذ قراره: سواء كانت هناك مشكلة في لوما غراندي أم لا، وسواء كان معه مسدس أم لا، سيذهب في اليوم التالي من أجل غابرييلا.

الفصل الخامس عشر: الليلة السابقة

1

- «الغجري» في لوس أتيكاس.

وصل النبأ إلى القرية عبر فم غوثمارو كوياثوس، الذي كان قد جاء توًا على متن الحافلة التي تتوقف مساء الثلاثاء في لوما غراندي وتشمل الطريق الذي يغطي كلًا من: إل أبرا، إل تريونفو، بلان دي آيالا، نينيوس إرويس، لوس أتيكاس، أرض مشاع ماديرو، دياث أورداث، كانواس، غارثيانو سانشيث، أرض مشاع باستوريس، لوما غراندي، سانتا آنا، إل ديثيوتشو، لوبيث ماتيوس، وثيوداد مانتي.

سأله أمادور ثيندياس:

- كيف عرفت؟

أجابه غوثمارو وهو يحاول إنعاش أحد الديوك الرومية التي سافر بها واختنقت من وضع جوالَي سكر فوقه:

- رأيت شاحنته أمام النزل.

باغته مارثيلينو، الذي كان لا يزال غاضبًا من نقاشه مع خوستينو تِييث:

- ووشيت له بالأمر، أليس كذلك؟

همس خوستينو كي يسمعه فقط من يحيطون به:

- ها هي ذي الحمارة تعود للقمح.

توقف غوثمارو عن النفخ في منقار الديك الرومي المحتضر وأجاب بعدائية:

- لا تأت إليَّ بمثل هذه الحماقات، ويترون، أنا لست مختثًا لأمارس النميمة.

- أنت الوحيد الذي خرج من القرية بعد أن عرفنا مسألة أن «الغجري» هو من قتل الفتاة.

الأمر صحيح: لقد ذهب غوثمارو صباح اليوم إلى نينيوس إرويس بالدراجة لشراء الطيور. ترك الدراجة عند قريب له يعيش هناك وعاد في الحافلة لكيلا يضطر إلى أن يقودها بالطيور.

- إذن، اتركني أقول لك يا مارثيلينو إنني لم أر «الغجري» أصلًا، وإنما لمحت شاحنته فقط.

تمتم مارثيلينو:

- سنرى.. سنرى..

لم يتجاوب غوثمارو مع استفزازه. كان الديك الرومي قد لفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه ولم يعد يعرف ما الذي يجب عليه أن يفعله به.

أثار نبأ وجود «الغجري» في مكان ليس بالبعيد أغلبية أهالي القرية وأيقظ داخلهم نهمًا لقتله. اقترح سوتيلو بيّا أن يذهبوا جميعًا إلى لوس أثتيكاس لقتله، لكن خوستينو هدأهم قائلًا:

- هذه المشكلة لا تخصنا، إنها مشكلة رامون.

لما عاد رامون من قتل الثور، وجد الرجال يترقبون وصوله. ودوا أن

يعرفوا رد فعله على وجود «الغجري» على بعد بضعة كيلومترات فقط. ضغطوا عليه بطرق متنوعة، إذ أجبره بعضهم على تكرار وعده بأخذ الثأر، فيما ألح عليه آخرون -الأعنف ومن ضمنهم مارثيلينو ويترون وسوتيلو بيّا- في مسألة أن يذهب في الليلة ذاتها إلى لوس أثتيكاس بحثًا عن الثأر. لم يتمكن رامون من فرط ارتباكه على الإجابة على كل من أرهقوه بأسئلتهم، لكن خاثينتو كروث ساعده في تفاديها، إذ قال بتؤدة:

- الصياد الجيد، ينتظر وصول النمر، ولا يمضي بحثًا عنه.

أثارت عبارته حفيظة مارثيلينو ويترون، إذ قال بتغطرس:

- وما العمل إن لم يأت؟

قاطعهما خوستينو تِيبيث، من دون أن يسمح لخاثينتو بالرد، إذ قال غاضبًا:

- كم مرة عليَّ أن أقول لك يا مارثيلينو إن «الغجري» سيعود؟

توجه مارثيلينو لمواجهته متأهبًا للشجار:

- وكم مرة عليَّ أن أسألك كيف لك أن تعرف أمرًا كهذا؟

نهض خوستينو من فوق مقعده وترك فوق الطاولة الصفيح زجاجة الجعة التي شربها والتفت نحو مارثيلينو وأجابه:

- لأن من لا يدين بشيء لأحد، لا يخشى شيئًا.

ومن دون أن يقدم شروحات أخرى، استدار وغادر المكان.

وقف البقية مرتبكين. وحده رانولفو كيرارتي تفهم مقصد المفوض بالضبط. يعلم خوستينو من دون شك أن «الغجري» بريء، ويوجد أشخاص آخرون، مثله، قد يعرفون هذا الأمر. لاحظ رانولفو مدى هشاشة كذبته وشعر بالخوف. لو لم يقتل رامون «الغجري» -وهو أمر مرجح أكثر

من غيره- فسيتبين «الغجري» هوية من ألقى بذنب الجريمة عليه وسيبحث عنه لتصفية حسابه معه. لا مجال للتراجع إلى الوراء وتفكيك المسرحية الهزلية التي خلقها. لا بد وأن يتصرف بطريقة ما كي تكتمل التضحية بـ«الغجري»، فهذا سبيل خلاصه الوحيد.

تسلل من بين الحضور متوترًا، وذهب إلى بيته ليحبس نفسه داخله وينتظر.

حل المساء وغادر الرجال ولم يبق سوى بعضهم في المتجر. طفا في الجو شك حول الأحداث التي قد تتفجر في أي لحظة.

خاثينتو كان من فريق المتيقنين من حدوث الأمر، ولهذا جذب رامون وتنحى به جانبًا وقال له:

- عليك أن تستعد، لأن «الغجري» لن يتأخر قدومه.

أخرج معول الثلج من المخلاة وسنه عدة مرات وناوله إلى رامون الذي تسلمه مرتعشًا نوعًا ما، وقال:

- إنه جاهز. لا تفكر في الأمر. اقتله من دون تفكير.

تأمل رامون الطرف المسنون وهو يلمع فوق راحة يده. لم يعد أمامه وقت لتجربة هجمات زائفة على القفص الصدري لبهيمة ميتة أو الثرثرة، فلحظة الحقيقة أوشكت على الوصول.

النهاية

1

استيقظ قبل الشروق بقليل إثر جلبة بعض طيور السوادية التي ظلت تنعق فوق أغصان شجرة التفاح التي صف شاحنته أسفلها. لقد نام بهدوء، رغم الحنق الذي شعر به ضد كارميلو لوثانو بسبب المال الذي سرقه منه، ورغم قلقه من معرفة أنه بعد عدة ساعات سيشعر مجددًا بجسد غابرييلا بين يديه، بل إن الحر المزعج حبيس الجزء الخلفي من الشاحنة لم يُعكر نومه.

فتح «الغجري» الباب فطارت كل العصافير. أخرج رأسه ليستنشق هواء الصباح المنعش. بدت رائحته كقصب السكر المحروق. جلس فوق الثلاجة المحمولة وخلع حذاءه. خرج من الجزء الخلفي للسيارة ونظر إلى تل «إل برنال» الذي تراءى من بين ظلال الأفق. قريبًا، سيعبر من هناك.

أشعل الموقد المحمول ووضع الماء ليسخن وليعد القهوة. لم يتعجل، إذ لاءمه الانتظار كي يتيقن من خروج زوج باوتيستا نحو حقول القطن، فوصوله إلى لوما غراندي في الساعة الثامنة يعني أن خصمه سيكون بعيدًا عنه.

أعد القهوة بخمس ملاعق سكر وواحدة من مسحوق الحليب. لطالما قدمته له أمه في طفولته بهذه الطريقة، إذ أصرت على أن السكريات تمنحه مزيدًا من الطاقة وتساعده على النمو بشكل أسرع.

أنهى قهوته ومص فصوص برتقالتين. شطف القدح القذر وأفرغ في عبوة الوقود الأبيض الفائض من خزان الموقد المحمول. مر قيوط مهرولًا من أمامه. تبادلا النظر إلى بعضهما بضع لحظات، قبل أن يمضي القيوط في طريقه من دون خوف أو تأهب.

شغل الراديو. بثوا في إذاعة تامبيكو برنامج «صباح الخير يا مزارعين» الذي يتظاهر فيه مذيعان ناعسان بوجود حوار ظريف وممتع بينهما وهما يتحدثان عن الرسائل التي يستقبلانها من «المستمعين الأعزاء جدًا»، وبعد قراءة كل واحدة منها والإشادة بـ«المنافع التي لا مثيل لها لمنتجات باير الزراعية»، يذكران الساعة بالضبط.

لما سمع «الغجري» أن «بايتيكول» أفضل طريقة لمواجهة القُرادة وأنها السابعة وست عشرة دقيقة صباحًا، قرر أن يرحل. حفظ الموقد في صندوقه، ولف المرتبة، وثنا الأغطية، وأخرج برتقالة من الثلاجة المحمولة ليأكلها أثناء الطريق. شغل المحرك وتركه يسخن. لف المقود وسار بالسيارة إلى الوراء ليسلك الطريق السريع نحو تامبيكو. هكذا، تبقت له بضع دقائق للوصول إلى وجهته.

2

باسكوال أورتيغا أول من رآه وهو آت. ميز شاحنته من بعيد وهي على منحدر الطريق الترابي المؤدي إلى قرية ديبثيوتشو. صب تركيزه على النقطة السوداء التي تتقدم على الطريق، ولما تحقق ممن هو، ترك الثورين والأحصنة التي يُبور بها الأرض لإراحتها وخرج راكضًا نحو القرية.

كان توركواتو غاردونيو يُحمّل بعض شوالات الذرة فوق ظهر بغل في

فناء بيته، حينما بدأ يسمع الأصوات. صعد إلى سطح بيته، فلمح باسكوال وهو يتواثب في يأس بين الأخاديد وهو يهتف بعلو صوته:

- إنه آت.. إنه آت.

رفع توركواتو نظرته واكتشف الشاحنة وهي تتقدم نحو القرية فهتف:

- يا بن الساقطة!

نزل مسرعًا من فوق صفائح السقف، وربط البغل في عمود، وتوجه بسرعة نحو حظائر خاثينتو كروث. عثر عليه في السقيفة إلى جوار ماثيدونيو وهما يقطِّعان الثور الذي قتلاه في المساء السابق. هتف صارخًا:

- لقد وصل.

انتهى الجزار من تقطيع أحد الأجزاء، ووضع شريحة اللحم فوق بعض أوراق الصحف القديمة وسأل:

- من الذي وصل؟

أجابه توركواتو بحنق:

- اللعنة.. «الغجري».

نهض خاثينتو، وأخذ قطعة من ورق الصحيفة ونظف دماء يديه، وسأل بهدوء:

- هل وصل إلى هنا فعلًا؟

أجابه توركواتو بنفاد صبر:

- لا، لكنه لن يتأخر.

فكر خاثينتو بضع ثوان.

– اذهب وأخبر رامون. قل له أن يستعد وإن «الغجري» قد عاد بالفعل وإنني سآخذه إلى متجره.

أنصت توركواتو إليه باهتمام، وقفز من فوق سياج الحظائر، وانطلق ليُعلن النبأ، وفي تلك الأثناء أكمل خاثينتو حديثه بعد أن توجه إلى ماثيدونيو:

– وأنت اجمع من تقدر على جمعهم وقفوا قرب المتجر، تحسبًا لأن تسوء الأمور.

انطلق ماثيدونيو في اتجاه الأراضي الزراعية لجمع الناس. لف توركواتو شرائح اللحم ووضعها في حقيبة من نسيج الجوت. أدخل سكين التقطيع في غمده ووضعه أسفل قميصه. قرر أن أفضل طريقة لاعتراض «الغجري» تتمثل في انتظاره خارج بيت روتيليو بوينابينتورا، حيث سيصل أولًا بكل تأكيد، على أن يدعوه وهما هناك لتناول الجعة في متجر رامون.

اجتاز باب الفناء ولاحظ باسكوال وهو يدخل القرية وهو يهتف:

– إنه آت.. إنه آت!

3

ترك خوستينو تِييث كوب الحليب فوق الطاولة ودفع جسده إلى مسند المقعد. لقد سمع قبلئذٍ صرخات باسكوال التحذيرية والصخب الذي تلاها، وها هو ذا الآن يشعر بهدير شاحنة «الغجري» وهي تقترب.

أغلق عينيه. ثمة مرات كثيرة سمع فيها هذا الصخب الخاص الذي يسبق الموت؛ فهو الصخب ذاته الذي سمعه في الصباح الذي قَتل فيه أبناء خيمينيث الثلاثة ناثاريو دوارتي؛ وهو ذات الصخب الذي تردد صداه في

الليلة التي أضرم فيها روغاثيانو دوارتي النيران في كوخ إيبوليتو خيمينيث ليحرقه حتى استحال رمادًا هو وزوجته وابنتاه؛ بل وهو الصخب ذاته الذي سمعه في ذلك المساء الذي نصب فيه ثمانية من رجال الشرطة القضائية كمينًا صرعوا فيه أدالبيرتو غاريباي بطريق الخطأ بعد أن خلطوا بينه وبين تاجر مخدرات. إنه الصخب ذاته: صوت الخطوات فوق التراب، وأصوات الناس، وحركة الرجال جيئة وذهابًا، والصمت المتباعد. إنه الصخب الذي، في نهاية المطاف، لا يُسمع صوته إلا من الداخل.

أخذ الكوب ورجه بهدوء. تأمل كيف التصق الحليب بجدران الكوب وكيف انزلق بعدئذٍ من عليها ببطء. يُمكنه أن يذهب في تلك اللحظة إلى الطريق السريع ليُجنب «الغجري» الهجوم الوشيك عليه. يُمكنه أن يتوجه إلى المتجر ليوضح لرامون أنه ما من صلة تجمع «الغجري» بالجريمة، وأن خليلته -هذا لو أن أديلا أصلًا خليلته- قد طُعنت بيد رجل نامت معه قبل موتها بعدة دقائق، وأن الثأر بإراقة دماء بريئة مسألة لا تستحق العناء. يُمكنه أن يزيح اللثام أمام الكل عن اللعبة السرية للقاتل الحقيقي الذي سيُوجه الظروف غالبًا لخلق لقاء قاتل بين رامون و«الغجري». كان بإمكانه إسكات جلبة الموت، التي تثقب أذنيه، إلى الأبد، لكنه لم يفعل هذا، إذ اقتصر رد فعله على مشاهدة الكيفية التي ينزلق بها الحليب فوق الجدران الزجاجية للكوب.

4

تعرت وأفرغت بعض أكواب المياه فوق شعرها. سمحت للماء أن ينزلق فوق جذعها لتنتعش. وجب عليها أن تنتصر على صباح آخر من الحر والغبار.

شغلت راديو البطاريات ورفعت الصوت. جلست على الفراش وبدأت في تصفيف شعرها. دندنت موسيقى أغنية الـ«كومبيا» التي استمعت إليها في الجهاز. انتهت من تصفيف شعرها ونهضت ونظرت إلى نفسها في المرآة. أحاطت تجاعيد صغيرة تكاد ألا تُرى بعينيها. قطبت غابرييلا جبينها مستاءة. لقد قالت لها جدتها منذ فترة إن النساء يبدأن في الإصابة بالتجاعيد بالطريقة ذاتها التي تبدأ فيها الفواكه بالتعفن. إنها كذبة، فهي قد بدأت في التعفن قبل ذلك أصلًا.

تركت المرآة وتوجهت إلى خزانة المطبخ. مرت من أمام النافذة وعبر نسيج الستارة الرقيق راقبت باسكوال أورتيغا وهو يركض من بعيد أمام قاعات المدرسة. لاحظت أنه يصرخ، لكنها لم تتمكن من سماع ما يقوله بسبب ضوضاء الراديو. خفضت الصوت ولدى عودتها لتنظر من النافذة مجددًا لم تجد باسكوال. ظلت مستغرقة في التفكير بضع لحظات. فجأة، وصلتها ضوضاء مركبة ما قادمة. شحذت سمعها. هذه الضوضاء لا يُمكن إخطاؤها. فتحت الستارة غير مكترثة بأن يروها وهي عارية عبر الشارع وأطلت برأسها محاولة اكتشاف من أين تأتي الضوضاء. التفتت جهة اليمين فدق قلبها بعنف، إذ ظهرت الشاحنة السوداء وهي تنعطف عند الناصية.

قفزت غابرييلا في سعادة في اتجاه الفراش، وأخرجت من أسفله صندوقًا تحتفظ فيه بملابسها. بدأت ترتديها بسرعة ثم توقف فجأة وهتفت بصوت مرتفع:

- سيقتلونه.

لفت ملاءة حول نفسها وركضت نحو مدخل بيتها. عليها أن تعترض طريقه وتخبره أنهم سيقتلونه، وأن عليهما أن يرحلا معًا. سمعت صوت البوق ثلاث مرات، وهي الإشارة التي يُخبرها «الغجري» بها أنه سينتظرها

بعد نصف ساعة في مكانهما المعهود. فتحت القفل وجذبت الباب. رأت بيأس أن «الغجري» يتقدم مسرعًا، فحاولت أن تلحق به وهي نصف عارية وصرخت:

- يا «غجري»!

لم تعد قادرة على الصراخ أكثر من هذا لأن رانولفو كيرارتي «لا أميستاد» كان يستند إلى أحد أعمدة السياج وسألها ما الذي توده منه.

5

توقف أمام بيت روتيليو بوينابينتورا. أطفأ المحرك وظل ممسكًا بالمقود بضع لحظات. بدت كل الأمور هادئة، ومع ذلك فمن المستحسن أن يتوخى حذره، فكارميلو لوثانو ليس من طينة الأشخاص الذين يحذرون من فراغ. أنزل زجاج الشباك كي يدخل الهواء ولا تسخن مقصورة القيادة. نزل من الشاحنة وتوجه نحو باب الدخول إلى أرض روتيليو. صَفّر له كما جرت العادة ليعلن وصوله. لم يُجبه العجوز.

- إنه نائم.

التفت «الغجري» سريعًا نحو الصوت الذي سمعه من وراء ظهره، فوجد خاثينتو كروث يبتسم له بمودة.

أضاف خاثينتو:

- جئت أنا أيضًا للبحث عنه، لكنه لا يجيب، بل والأكثر من هذا أنه لم يُخرج الدجاجات.

أول ما يفعله روتيليو لدى استيقاظه، الإفراج عن الدجاج، لكن في تلك

اللحظة كان صوتها لا يزال مسموعًا داخل البيت.

خلع خاثينتو كروث قبعته الـ«سومبريرو» ونظف العرق المتساقط من جبينه.

قال:

- الشمس لا ترحم.. تحرق أصلًا منذ الآن..

تابع حديثه:

- لِمَ لا نذهب لتناول بعض الجعة حتى يستيقظ العجوز؟ الحساب عليّ.

رفض «الغجري» عرضه.

- من الأفضل أن أنتظر هنا.

لم يستسلم خاثينتو وربت فوق ظهره قائلًا:

- لِمَ تُرهق نفسك يا رجل؟ أحيانًا، لا يستيقظ روتيليو إلا في التاسعة أو العاشرة. هيا بنا! تشجع! لن نتأخر.

لم يجد «الغجري» سببًا يدفعه للاشتباه في خاثينتو، إذ إنهما سبق أن ثملا معًا في زياراته السابقة إلى لوما غراندي.

قال قبل أن يفتح الباب ويدخل إلى الفناء.

- اتركني فقط أُلقِ نظرة سريعة لأرى ما إذا كان قد استيقظ.

رآه خاثينتو بقلق وهو يتقدم نحو البيت. قد يُحذره روتيليو وتنهار الخطة. نظر «الغجري» عبر النافذة وعاد وقال:

- لقد نام فوق مقعده الهزاز.

- إذن، ما الذي سنفعله؟

- هيا بنا!

6

أربع مرات أمسك فيها معول الثلج وأربع مرات أفلته فيها. هذا معول ثلج مختلف تمامًا عن الذي أمسكه في الليلة السابقة. شكله وقوامه وأبعاده مختلفة. هذا المعول يصعب إمساكه ولا يتقولب جيدًا في يده.

نظر توركواتو بيأس إلى جهود رامون غير المجدية لإخفاء معول الثلج في الكم الأيسر لقميصه، ثم صرخ فيه:

- أسرع!

أمسك رامون المعول مجددًا. حاول تهدئة أصابعه، لكنه عجز وتركه مرة أخرى فوق النضد. زمجر توركواتو:

- لا تتراجع.

لم يتراجع. المشكلة ببساطة أنه لم يجد طريقة لإخفاء السلاح بين ثنايا القميص. كذلك، لم يجد سبيلًا لوقف ضربات قلبه في صدغيه ولإرخاء عضلات ساعده المتصلبة. لقد جاء توركواتو إليه بالنبأ في وقت أسرع من اللازم. ليس بإمكانه أن يستعد للقتل -أو للموت- في غير أوانه بمثل هذه الصورة. لا. ليس هكذا.

حاول توركواتو أن يضع معول الثلج داخل قميص رامون، لكنه فعلها بخشونة إلى درجة أن السلاح انزلق وتدحرج على الأرض.

فجأة، ظهر ماثيدونيو عند باب المتجر وتمتم:

- إنهما قادمان.

أمسك رامون معول الثلج بيده اليُمنى وتشبث به بكل قواه. لن يفلته بعد تلك اللحظة.

تجسس توركواتو عبر ثقب في الحائط ورأى خاثينتو و«الغجري» يقتربان، فسأل:

- هل ثقبتم إطارات شاحنته؟

أومأ ماثيدونيو برأسه، فعاد توركواتو للنظر عبر الثقب، ثم هتف:

- إنهما عند بيت مارثيلينو.

أطبق رامون فكه وتنفس بعمق. قال له توركواتو قبل أن يرحل مع ماثيدونيو للاختباء:

- لا تتركه يرحل حيًا.

هكذا، وقف رامون وراء النضد، وغطى معول الثلج بخرقة وأبقاه في يده عند أسفل نقطة ممكنة.

7

ما نبه «الغجري» مجرد مؤشرات بسيطة تكاد ألا تكون ملحوظة. خمن على إثرها وجود هجوم مفاجئ: نظرات النساء التي ترصدته من النوافذ لدى مروره، الرجال الذين تسللوا خلسة من بين النواصي والصمت المتقطع الغريب نوعًا ما على القرية في تلك الساعة الصباحية.

تجهز «الغجري» من دون أن يشغل باله بصورة أكثر من اللازم لأي

هجوم. شد عوده وتفحص كل الأماكن ركنًا تلو الآخر بعناية.

وصلا إلى المحل وعلى الفور وقف وظهره إلى مشرب نضد البيع. ود أن يواجه المدخل ليرصد أي حركة غريبة. لم يهتم بأن يكون رامون خلفه، فالبائع لم يشكل أي خطر بالنسبة إليه.

ألقى خاثينتو تحية مقتضبة بعبارة «صباح الخير» عجز رامون عن الرد عليها، إذ خنقته الكلمات، وحاول أن يسيطر على تسارع ضربات قلبه الذي هزه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

توجه خاثينتو إلى المبرد وأخرج زجاجتين وفتحهما. قال لرامون بابتسامة متواطئة: «سنشرب بعض الجعة». التفت بعدئذ نحو «الغجري» وناوله زجاجته. أمسكها «الغجري» بيده اليسرى، فلا بد أن تكون يده اليمنى حرة ليدافع عن نفسه ضد أي اعتداء.

أخذ خاثينتو رشفة واستند إلى الحائط المجاور إلى الباب، فتابعه «الغجري» بنظرته، منتبهًا.

بدأ الرجال يتحدثون ورامون -الذي لم يتحرك من وراء نضد البيع- لا يزال عاجزًا عن السيطرة على أعصابه. بدا له «الغجري» في الضوء المعاكس أطول وأقوى مما هو عليه الأمر في ذاكرته. فكر في أنه لن يتمكن من قتله أبدًا.

أنهى خاثينتو، في ظل قلقه من ذهول الفتى، جعته وطلب واحدة أخرى. خمن رامون أن هذه هي كلمة السر كي يتحرك. دار حول نضد البيع وسار نحو المبرد. لما مر إلى جوار «الغجري»، اختلج جسده مرتعشًا. اعتدل الرجل وتركه يمضي من أمامه.

توقف رامون إلى جوار المبرد، إلى يسار «الغجري» بالضبط. ارتعش معول الثلج بين يديه. رفع عينيه ورأى المكان الذي يجب عليه أن يغرزه فيه،

ثم ترك الخرقة تسقط بصورة تدريجية، فظهر المعول للعيان.

لم يلحظ «الغجري» -الذي صب اهتمامه على المدخل- أن رامون مسلح. رفع ذراعه اليسرى ليأخذ رشفة من الجعة، فرأى رامون بقعة العرق أسفل إبطه، ووجه ضربته في اتجاهها. غرز معول الثلج حتى مقبضه وأخرجه من مرة واحدة.

تراجع «الغجري» خطوتين إلى الوراء متعثرًا بعد الضربة وتشبث بالرف لكيلا يسقط. شعر بوخز ساخن في جانبه، فرفع يده عند إبطه المثقوب. تبللت أصابعه سريعًا. رفع يده الملطخة بالحمرة ونظر إليها باندهاش، كأنه يشك في أن الدم ينبثق فعلًا منه. تحسس الجرح مجددًا ونظر إلى رامون، وتمتم:

- يا ابن الساقطة!

لوح بزجاجة الجعة وكسرها بغضب فوق غطاء نضد البيع. تراجع رامون مفزوعًا إلى الوراء ورفع معول الثلج مستعدًا للهجوم. هز «الغجري» رأسه. سحب نفسًا من الهواء، ولما انتفخ صدره، انتشر الدم في صورة دائرة على قماش قميصه. سار ثلاثة أمتار تحت تأثير سكرة الموت وهو يترنح ثم توقف عند عتبة الباب. نظر إلى الخارج نحو امرأتين تقفان وتنظران إليه مشدوهتين.

قال وهو يلهث:

- لم يعد الأمر كذلك.

فتح فمه مجددًا بحثًا عن الهواء. تشنجت قبضتاه واكتسى وجهه بإيماءة ألم وأخذ جسده ينحني رويدًا رويدًا كأنه يقرفص ليلتقط عملة من على الأرض، إلى أن انهار بتثاقل فوق تراب الأرض الجاف.

انزلق رامون من فوق مشرب نضد البيع ومن داخل المتجر تأمل «الغجري» وهو يتقيأ آخر أنفاسه.

8

تمدد الجثمان فوق بطنه، برأسه المتعرق الملتصق بالتراب وعيناه المفتوحتان تنظران في اتجاه جانبي. اقترب خاثينتو من الجثة ووضع راحة يده أمام الأنف ليتأكد من انقطاع أنفاسه.

سأله توركواتو الذي وصل مع ماثيدونيو وباسكوال ليقفوا جميعًا حول الجثمان:

- هل لا يزال حيًا.

- لا.

هكذا أجابه خاثينتو باقتضاب، قبل أن ينهض ويدخل إلى المتجر، حيث عثر على رامون وهو يرتعش ممتقع الوجه، فأمره:

- عليك أن ترحل.

نظر إليه رامون متوجسًا:

- إلى أين؟

- إلى أي مكان، لكن ارحل الآن!

- لماذا؟

لم يُجبه خاثينتو. تفهم رامون من صمته أن رحيله لا مناص منه، ففتح الدرج الواقع أسفل نضد البيع وأخذ كل المال الموجود هناك وخرج إلى الشارع. تأمل جثة غريمه بضع ثوان، ثم انطلق راكضًا.

انبثقت أرملة كاستانيوس متوترة من داخل البيت، بعد أن رأت عملية القتل من شرخ في الحائط، وشاهدت ابنها وهو يتيه في البُعد.

9

ركض وركض بين الدروب، ثم توقف حين لم تقدر ساقاه على المضي قدمًا. جلس إلى حجر ليرتاح. إنه بعيد عن لوما غراندي، بل وتخطى أرض مشاع باستوريس بمسافة بعيدة. فحص معول الثلج الدامي الذي كان لا يزال في يده. نظفه بلعابه، معتنيًا بألا يبقى أي أثر للدماء، ثم ثبته في حزامه.

بدا له الصباح خاليًا من طباعه الدائمة: لا هو حر كل الأيام ولا هو نفس الهواء ولا هي نفس صرصرة الصرانيخ. لقد غير شيء ما كل الأمور تمامًا وجعلها مختلفة.

شعر بالجوع والعطش. شعر بأنه أخطأ حين لم يهرب عبر الدرب الواقع بمحاذاة نهر غواياليخو. هناك كان ليجد الماء وربما أمكنه أن يسرق اللانغوستين من سلال الصيادين المفخخة، لكن النهر الآن يقع على بعد عدة كيلومترات منه.

تجول عبر الأرض المليئة بالحجارة ليعثر على شيء ليأكله. وصل إلى حقل سورغم وانتزع حفنة من الحبوب الناضجة من أحد أعواده. تذوقها بطرف لسانه لمعرفة ما إذا كان بها مبيدات أم لا، فهذا هو الموسم الذي ترش فيه الطائرات الصغيرة حقول المزارعين الذين يعملون لحسابهم الشخصي. لم يبد طعم الحبوب له مُرًا، ما يعني أنها تخلو من المبيدات، ولهذا التهم منها أكثر من حفنة.

رحل عن حقل السورغم، ونظر إلى وضعية الشمس، ثم توجه شمالًا. فكر في أن الأنسب هو الذهاب إلى كانساس بحثًا عن أخيه.

سار بضع دقائق عبر الطريق الترابي ثم توقف فجأة. تفقد جيوبه أكثر من مرة بحثًا عن صورة أديلا. راح بحثه هباء: الصورة ليست معه. ود أن

يعود إلى لوما غراندي، والمخاطرة مرة أخرى من أجلها. بدا له الأمر جنونًا؛ ففي نهاية المطاف: من هي أديلا؟ انطلق يمشي شمالًا، لكنه توقف بعد بضع خطوات. أديلا هي كل شيء ولا يمكنه أن ينساها. ببساطة لا يمكنه. التفت ولمح من بعيد تل «إل برنال». بدأ يسير جنوبًا بسرعة أكبر وأكبر كلما تقدم الوقت. قريبًا، ستصبح أديلا معه مرة أخرى، حتى لو كانت في هيئة صورة مجعدة بالأبيض والأسود تُظهر جانبَي وجهها وثلاثة أرباع نصفها العلوي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رائحة حلوة للموت

ذات صباح يكتشف رامون جثة أديلا في أحد الحقول المجاورة لقرية لوما غراندي. لم يرَ رامون أديلا سوى بضع مرات، لكن في نفس اللحظة التي يُغطي فيها جثة الفتاة بقميصه، تنتشر شائعة تقول إنها خليلته. بداية من تلك اللحظة، ستتابع الأحداث بصورة مستمرة وسيجد رامون نفسه مُلزمًا بالثأر للفتاة. ما يجبره على التصرف هكذا هو قلبه. ليس قلبه فقط، وإنما قرية كاملة تتحول إلى بطل هذه الرواية في مسعاها للثأر.

غييرمو أرّياغا أحد أهم المؤلفين المكسيكيين المعاصرين. يتنوع إنتاجه بين الرواية والقصة القصيرة وكتابة السيناريو. حصل على عدة جوائز محلية ودولية مهمة، أبرزها جائزة "ألفاجوارا" الإسبانية عام 2020.

تحول عدد من أعماله الروائية إلى أفلام منها رواية "رائحة حلوة للموت" و"جاموس الليل"، كما أنه كتب سيناريو فيلم "بابل" الشهير من بطولة براد بيت وكيت بلانشيت وإخراج أليخاندرو جونثالث إنياريتو.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-603-91816-6-8

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ

أثر